

سُورَةُ الْمُلْكِ

حِينَ يَسْقُطُ وَهُمْ الْأَمْتِلَاكِ

تَأْلِيفُ : رَدَّادُ السَّلَامِيِّ



سُورَةُ الْمَلِكِ

حِينَ يَسْقُطُ وَهُمْ الْأَمْتَلَاكُ

تأليف : رَدَّادُ السَّلَامِيِّ

سُورَةُ الْمُلْكِ | حِينَ يَسْقُطُ وَهُمْ الْأَمْتَلَاكِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة منهجية

عند أبواب الملك: كيف نقرأ سورة تعيد الإنسان إلى جمعه، والكون إلى ماله؟

ليست سورة الملك سورة تُقرأ في طرف الليل ثم تنقضي بانقضاء التلاوة، وإنما هي من تلك السور التي إذا أحسن الإصغاء إليها أعادت ترتيب العالم في داخل الإنسان؛ فهي تبدأ من أعلى حقيقة يمكن أن يبدأ منها وعي بشري: أن الملك كله لله، وأن اليد التي بيدها الملك ليست يدًا تنازعها يد، ولا سلطاناً يحده سلطان، بل قدرة الله سبحانه التي لا يعجزها شيء، وتديره الذي لا يخرج عنه موجود، ومشيته التي تقوم عليها السماوات والأرض وما بينهما، ثم لا تلبث السورة أن تنقل القارئ من هذه الحقيقة العليا إلى حقيقة نفسه، ومن ملكوت القدرة إلى امتحان الحياة، ومن طباق السماوات إلى اضطراب القلب، ومن المصايح المعلقة في السماء إلى النار التي تنتظر المكذبين، ومن أصوات الطير وهي تصف أجنتها وتقبضها إلى خفقة الإنسان وهو يمشي في مناكب الأرض، ومن أمنه الظاهري فوق التراب إلى هشاشته أمام خسفٍ أو حاصب، حتى تنتهي به عند قطرة الماء التي يراها أيسر الأشياء

سُورَةُ الْمُلْكِ | حِينَ يَسْقُطُ وَهُمْ الْأَمْتَلَاكُ

وجوداً فإذا القرآن ينتزع عنها قناع الاعتیاد ويسأله السؤال الذي يهدم غروره كله: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَنَنْتَقِمُكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ﴾؛ فكأن السورة تبدأ بملك السماوات وتنتهي بجرعة الماء، وبين البداية والنهاية يتعلم الإنسان أن الذي يملك أفلاك السماء هو نفسه الذي يملك القطرة في جوف الأرض، وأن العبد لا يستقل بشيء بينهما، وأن كل ما يسميه قوةً وأمناً ورزقاً وحياةً إنما هو عارية قائمة بإبقاء الله لها، فإذا شاء سبحانه سلبها من حيث لا يبلغ تدبير الإنسان ولا حيلته.

وستقرأ هذه السورة، آيةً بعد آية، لا قراءةً تستبدل التفسير بالتأمل، ولا تأملاً يتجاوز حدود النص ليحمل ما لا يحتمل، بل قراءة تبدأ من اللفظ القرآني كما ورد، ومن موقعه في السياق، ومن علاقته بما قبله وما بعده، ومن الحركة التي يصنعها ترتيب الآيات في النفس، ثم تفتح بعد ذلك نوافذ التدبر على الوجود الإنساني والكوني؛ لأن القرآن لا يذكر السماء هنا ليضيف إلى معلومات الإنسان معلومةً في علم الفلك، ولا يذكر الموت والحياة ليقرر حقيقةً يعرفها كل حي، ولا يذكر الطير والرزق والأرض والماء لمجرد تعداد النعم، وإنما يعيد بهذه الأشياء المألوفة بناء البصيرة، فينتزع الكون من برودة الاعتیاد ويعيده آيةً، وينتزع الحياة من وهم الملكية ويعيدها ابتلاءً، وينتزع الموت من هامش الوعي ويضعه في قلب المشهد، وينتزع النعمة من يد الإنسان المتوهمة ويعيدها إلى واهبها؛ ولهذا سيكون مدار هذه

سُورَةُ الْمُلْكِ | حِينَ يَسْقُطُ وَهُمْ الْأَمْتَلَاكِ

الرحلة على السؤال الذي تخفيه السورة في كثير من مشاهدتها: كيف يتغير الإنسان حين يرى الأشياء كما يريد القرآن أن يراها؟ كيف ينظر إلى عمره إذا علم أن الموت والحياة خلقا لامتحان جودة العمل لا لكثرة السنوات؟ وكيف ينظر إلى السماء إذا لم تعد سقفاً أزرق صامتاً، بل بناءً محكماً يُستدعى بصره إلى تفقده مرةً بعد مرة حتى يعود إليه البصر خاسئاً وهو حسير؟ وكيف ينظر إلى الخطيئة حين يسمع اعتراف أهل النار بأن أصل الكارثة لم يكن نقص الدليل، بل تعطيل السمع والعقل؟ وكيف يمشي في الأرض بعد أن يسمع: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا﴾ فيدرك أن الأرض التي تحمل خطاه ليست خاضعةً له بذاتها، وإنما ذلّ لها رهبا، وأن وراء كل خطوة مستقرة نعمةً لو رُفعت لانقلب الاستقرار نفسه سؤالاً مخيفاً؟

إن لسورة الملك هندسةً داخليةً شديدة الإحكام، وسنحاول طوال هذه الرحلة أن نصغي إلى هذا البناء كما نصغي إلى الآية المفردة؛ فالسورة لا تجمع مشاهد متفرقة، وإنما تقود القلب في حركة محسوبة: ملكٌ، ثم خلقٌ، ثم اختبارٌ، ثم سماءٌ، ثم مصيرٌ، ثم اعترافٌ، ثم علمٌ بالسر، ثم أرضٌ ورزقٌ، ثم تهديدٌ للأمن، ثم طيرٌ في الفضاء، ثم انكشافٌ لعجز القوة البشرية، ثم سؤالٌ عن الهدى والضلال، ثم تذكيرٌ بالنشأة والحشر، ثم مواجهةٌ للمستعجلين بالعذاب، ثم ختمٌ بالماء؛ وهذا التدرج ليس ترتيب موضوعات فحسب، بل تربية للوعي، كأن السورة

سُورَةُ الْمُلْكِ | حِينَ يَسْقُطُ وَهُمْ الْأَمْتَلَاكِ

تنزع من القلب طبقةً من الغفلة بعد طبقة، فلا تدعه يختبئ وراء ضخامة الكون لأن الخالق أقرب إليه علماً من سره، ولا يختبئ وراء الأرض لأنها قد تتحرك من تحته، ولا وراء الجماعة لأنها لا تملك له نصراً، ولا وراء الرزق لأن أبوابه ليست في يده، ولا وراء قوة الأسباب لأن الطير الممسك في الهواء شاهد يومي على أن الأسباب نفسها محاطةٌ بإمساك الله، ولا وراء طول الأمل لأن الحشر إليه، ولا وراء أكثر النعم بداهةً لأن الماء ذاته قد يغور؛ وحين تنتهي السورة يكون الإنسان قد جرد، إن صدق معها، من أكثر أوهامه رسوخاً: وهم الاستقلال، وهم الأمان الذاتي، وهم دوام النعمة، وهم أن ما اعتاده فقد دلالتة، ليعود إلى الحقيقة الأولى التي افتتحت بها السورة: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾.

وسنولي عنايةً خاصةً لألفاظ السورة التي تبدو لأول وهلة مألوفاً ثم تنفتح عند التأمل على طبقات من المعنى؛ فليس سواءً أن تقول السورة: ﴿خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ﴾ وأن يمر القارئ على العبارة مروراً عابراً، إذ إن تقديم الموت، ووصف الاثنين بالخلق، وربطهما مباشرةً بقوله: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ يعيد تعريف الحياة كلها؛ وليست عبارة ﴿فَارْجِعِ الْبَصَرَ﴾ مجرد دعوة إلى النظر في السماء، بل تربية للعقل على أن يفتش وأن يعيد النظر وأن يدرك أن كثرة النظر الصادق لا تفضي إلى اكتشاف الخلل في صنع الله، بل إلى اكتشاف حدود البصر نفسه؛ وليست كلمة ﴿خَاسِئًا﴾ وصفاً عابراً لعينٍ تعبت، بل انقلابٌ بديع في

سُورَةُ الْمُلْكِ | حِينَ يَسْقُطُ وَهُمْ الْأَمْتَلَاكِ

موقع الإنسان: ذهب يبحث عن نقص في الخلق فعاد إليه النقص من جهة قدرته على الإحاطة؛ وليست ﴿ذُلُولًا﴾ وصفًا سالكًا للأرض، وإنما إشعارٌ خفي بأن هذا الاستقرار الذي نبي عليه مدنا وأحلامنا وحساباتنا ليس خاصةً نستحقها، بل تسخيرٌ متجدد؛ وليست ﴿مَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ﴾ خاتمةً تقريرية، بل ضربةٌ أخيرة على باب القلب، لأن الإنسان الذي قد يجادل في دلائل السماء يعجز أن يجادل حين يُسأل عمن يرد إليه كأس الماء إذا اختفى أصله من الأرض. وهكذا سنحاول أن نقف عند الكلمة لا لنثقل النص بصناعة لغوية متكلفة، وإنما لنرى لماذا جاءت هنا، وكيف تشارك في بناء المشهد، وما الذي تنقله من المعنى إلى القلب قبل أن تنتقل العين إلى الكلمة التي بعدها.

وسنقرأ مشاهد الوعيد في السورة بالميزان نفسه الذي نقرأ به مشاهد الرحمة والنعمة؛ فلا نجعل النار عنصرًا منفصلًا عن التربية، ولا نحول الخوف إلى قسوةٍ نفسية مجردة، فالقرآن حين يصور شهيق جهنم وغيظها لا يريد من الإنسان أن يتلذذ بمشهد الهلاك، وإنما أن يستيقظ قبل أن يصبح الندم خبرًا عن ماضٍ لا يمكن إصلاحه، ولهذا فإن من أوجع مشاهد السورة ليس النار في ذاتها بقدر ما هو ذلك الاعتراف المتأخر: ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾؛ هنا تصبح المأساة أعمق من العقوبة، لأن أهلها يعرفون بعد فوات الأوان أن أدوات النجاة كانت معهم: سمعٌ يتلقى، وعقلٌ يتدبر، وآياتٌ ترم أمام

سُورَةُ الْمُلْكِ | حِينَ يَسْقُطُ وَهُمْ الْأَمْتَلَاكُ

الأبصار، ونذرُ يوقظون، ولكن الآفة كانت في تعطيل الطريق بين الدليل والقلب. ومن هنا سنحاول أن نستخرج من كل وعيدٍ سؤالاً للحياة لا صورةً للمصير وحده: أين يتعطل سمع الإنسان وهو يظن أنه يسمع؟ ومتى يتحول العقل من وسيلة هداية إلى آلة لتبرير الهوى؟ وكيف يمكن للمرء أن يعيش وسط دلائل لا تنتهي ثم يخرج من العالم فقيراً من الدلالة؟ وكيف تبلغ الغفلة بالإنسان أن يرى السماء كل يوم، والطير كل يوم، والأرض كل يوم، والماء كل يوم، ثم لا يرى في شيء من ذلك رسالةً إليه؟

ولن نفصل، في هذه الرحلة، بين ملكوت الآفاق وملكوت الأنفس؛ لأن سورة الملك نفسها لا تفصل بينهما، فهي ترفع العين إلى السماوات ثم تعيدها إلى السر الخبوء في الصدور، وتحدث الإنسان عن النجوم ثم عن الرزق، وعن الطير ثم عن الحشر، وعن الأرض ثم عن الماء، وكأنها تقول له إن الوجود كله كتابٌ مفتوح ولكن مفتاح قراءته في القلب؛ فقد ينظر اثنان إلى السماء نفسها، فيرى أحدهما فضاءً مألوفاً ويرى الآخر أثر الحكمة والإتيقان، ويشرب اثنان من الماء نفسه، فيراه أحدهما شيئاً مضموناً ويره الآخر رحمةً تصل إليه من خزائن لا يملكها، ويمشي اثنان على الأرض ذاتها، فيمشي الأول عليها بغرور المالك ويمشي الثاني عليها بخشوع المستعار له الطريق. ليست المشكلة إذن في قلة الآيات حولنا، ولكن في القدرة على استرداد دهشة الإيمان أمامها؛ تلك الدهشة التي لا تعني الجهل

سُورَةُ الْمُلْكِ | حِينَ يَسْقُطُ وَهُمْ الْأَمْتَلَاكِ

بالأسباب، بل رؤية رب الأسباب من وراء انتظامها، ولا تعني تعطيل العقل، بل تحريره من سجن الألفة حتى يسأل من جديد: لماذا استقر هذا كله؟ ومن أقامه؟ ومن أبقاه؟ ومن يضمن بقاءه لحظةً أخرى؟

لهذا لن تكون رحلتنا في سورة الملك شرًا خارجيًا لسورة تأملها من بعيد، بل محاولةً لأن نقف تحت خطابها ونسمح له أن يسأَلنا؛ فعندما تقول: ﴿يَكْزُ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ لن نسأل عن معنى الإحسان في العمل فحسب، بل سنسأل عن حياةٍ قد تكاثرت أعمالها وقلّ حسنها، وعن إنسانٍ استبدل قيمة العمل بعدده، وعن قلبٍ قد يرهقه الإنجاز ولا يسأل نفسه لمن كان الإنجاز؛ وحين تقول: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾ سنقف أمام الوهم الإنساني القديم بأن السرا إذا اختفى عن الخلق فقد اختفى، لنكتشف أن الإنسان قد يستطيع أن يصنع حول نفسه جداراً من الصمت أمام الناس، لكنه لا يستطيع أن يصنع مسافةً بينه وبين علم خالقه؛ وحين تقول: ﴿فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ سنرى كيف يجمع القرآن في جملة واحدة بين الحركة في الدنيا والعودة إلى الآخرة، فلا يربي المؤمن على الانسحاب من الأرض، ولا يسمح له أن يذوب فيها، بل يأمره أن يمشي ويطلب ويأكل ثم يضع فوق الحركة كلها جهةً أخيرةً لا يجوز أن تغيب: ﴿وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾؛ فالآخرة هنا لا تلغي السعي، وإنما تمنحه اتجاهه الأخلاقي، والدنيا لا تناقض العبودية، وإنما تصبح ميدانها.

سُورَةُ الْمُلْكِ | حِينَ يَسْقُطُ وَهُمْ الْأَمْتِلَاكِ

إن الذي نرجوه من هذه الصفحات هو أن نخرج من سورة الملك بغير القلب الذي دخلنا به إليها؛ أن نصعد معها إلى السماء فلا نعود منها بزيادة معلومة، بل بنقص غرور، وأن نقف معها أمام الموت فلا نزداد كآبةً، بل وضوحاً في معنى العمر، وأن ننظر في النار فلا نتعلم الخوف وحده، بل خطورة إضاعة أدوات الهداية، وأن نمشي في الأرض فنشعر بوطأة النعمة تحت أقدامنا، وأن نرى طائرًا يبسط جناحيه فنقرأ في ثباته درساً في الرعاية، وأن نأكل رزقاً فلا ننسب آخر السلسلة إلى أولها، وأن نشرب الماء فنستشعر في جرعته عهداً خفياً بين فقرنا وغنى الله سبحانه. وأجمل ما يمكن أن تصنعه هذه السورة في القلب أن تنقله من معرفة أن الله ملك إلى العيش تحت معنى هذا الملك؛ والفرق بين الأمرين هو الفرق بين معلومة تستقر في الذهن وحقيقة تستولي على الرؤية كلها: فإذا كان الملك لله حقاً، فما الذي أخاف أن يفوتني إذا أرضيته؟ وما الذي أطمع أن أملكه بعيداً عنه؟ وما معنى أن أتكبر في ملكٍ لست أملك فيه حتى نبض قلبي؟ وما معنى أن أياس والقدره كلها لله؟ وما معنى أن أركن إلى سببٍ وأنا أرى السورة، من أولها إلى آخرها، تعيد الأسباب كلها إلى يد المسبب سبحانه؟

من هنا سنبدأ؛ من أول كلمة تهزّ بناء الوهم في النفس: ﴿تَبَارَكَ﴾، ثم ندخل آيةً بعد آية، لا على عجل من يريد بلوغ نهاية السورة، بل على مهل من يعرف أن بعض الآيات لا تُقرأ

سُورَةُ الْمُلْكِ | حِينَ يَسْقُطُ وَهُمْ الْأَمْتِلَاكِ

لَتُتْجَاوَزَ، وَإِنَّمَا لَتَقِيمَ فِي الْقَلْبِ حَتَّى تَعِيدَ صِيَاغَتَهُ. سَنَرَفَعُ أَبْصَارَنَا حِينَ يَأْمُرُنَا النَّصَّ أَنْ نَنْظُرَ، وَنُخَفِّضُ رُؤُوسَنَا حِينَ يَكْشِفُ لَنَا مَقْدَارَ ضَعْفِنَا، وَنَقْتَرِبُ مِنَ النَّارِ حِينَ يَرِيدُ الْقُرْآنُ أَنْ يَسْمَعَنَا شَهِيْقَهَا قَبْلَ أَنْ نَقْتَرِبَ مِنْهَا بِأَعْمَالِنَا، وَنَمْشِي فِي مَنَاكِبِ الْأَرْضِ وَنَحْنُ نَعْرِفُ أَنَّ الطَّرِيقَ نَفْسَهُ نِعْمَةٌ، وَنَقْفُ فِي خَاتِمَةِ الرِّحْلَةِ عِنْدَ الْمَاءِ؛ وَحِينَئِذٍ لَعَلَّنَا نَفْهَمُ لِمَاذَا تَبَدَّأَ السُّورَةُ بِالْمُلْكِ وَتَنْتَهِي بِالْعَطَشِ: لِأَنَّ الْإِنْسَانَ قَدْ يَعْتَرِفُ لِلَّهِ بِمُلْكِ الْمَجْرَاتِ ثُمَّ يَعِيشُ كَأَنَّهُ يَمْلِكُ كَأَسْهَ، فَجَاءَتِ السُّورَةُ لَتَرُدَّ الْبَعِيدَ وَالْقَرِيبَ جَمِيعًا إِلَى الْحَقِيقَةِ الْوَاحِدَةِ، وَتَقُولُ لِلْقَلْبِ مِنْ أَوَّلِ آيَةٍ إِلَى آخِرِ آيَةٍ: لَيْسَ فِي الْوُجُودِ شَيْءٌ خَرَجَ مِنْ مَلِكِهِ سُبْحَانَهُ، فَلَا تَجْعَلْ فِي قَلْبِكَ شَيْئًا يَخْرُجُ عَنْ عِبُودِيَّتِهِ.

حين يبدأ الوجود من يد الملك

الآية الأولى: حين تسقط أوهام الامتلاك أمام الحقيقة الكبرى

﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾

تبدأ سورة الملك بكلمة لا تكاد تُفْتَحُ حتى ينفتح معها أفقٌ كامل من الجلال: ﴿تَبَارَكَ﴾؛ فلا مقدمة، ولا تمهيد، ولا انتقال تدريجي من عالم الإنسان إلى عالم الألوهية، وإنما يواجهك القرآن منذ اللفظة الأولى بالحقيقة التي ينبغي أن تُبنى عليها بقية الحقائق: الله سبحانه هو المتعالي في بركته، العظيم في خيره، المتكاثر الذي لا ينفد عطاؤه، الثابت الذي لا يلحق كماله نقص، ولا تُدْرِكُ بركته بقياس المقادير البشرية المحدودة. وكأن السورة قبل أن تحدثك عن حياتك وموتك وسمائك وأرضك ورزقك ومصيرك تقول لك: صحح أولاً صورة المركز الذي تدور حوله الأشياء كلها؛ فالمشكلة الكبرى في حياة الإنسان لا تبدأ دائماً من جهله ببعض التفاصيل، وإنما من اضطراب مركز الرؤية عنده، فإذا توهم أنه مركز الوجود، وأن الأشياء تدور حول حاجاته، وأن الكون مجال لامتلاكه لا مجال لعبوديته، اختلت

سُورَةُ الْمُلْكِ | حِينَ يَسْقُطُ وَهُمْ الْأَمْتَلَاكِ

عنده المقاييس كلها، أما إذا بدأ من ﴿تَبَارَكَ﴾ فقد بدأ من حيث ينبغي للعقل أن يبدأ، ومن الموضع الذي تستقيم عنده النفس، لأنك لا تدخل إلى معنى الملك وأنت متضخم بذاتك، بل تدخل وقد انحنى فيك وهم الاستقلال أمام جلال الملك.

ثم تأتي العبارة التي تهدم أعمق أصنام النفس الحديثة والقديمة معاً: ﴿الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾. والمراد إثبات كمال التصرف والسلطان لله سبحانه على الوجه اللائق بجلاله، من غير تشبيه ولا تمثيل؛ فليس المراد جارحةً كجوارح المخلوقين، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، وإنما هو خبرٌ عن كمال ملكه وقدرته وتصرفه، كما يليق بمن قال عن نفسه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾. وهنا ينتقل القلب من كلمة البركة إلى سلطان الملك، وكأن القرآن يعلمك أن الخير كله لا ينفصل عن الملك كله؛ فالذي يبارك هو الذي يملك، والذي يعطي هو الذي يتصرف، والذي يفتح هو الذي يمنع، والذي يرفع هو الذي يخفض، وليس في الوجود خزائن خارجة عن سلطانه حتى تطلبها بعيداً عنه، ولا أبواب مستقلة عن أمره حتى تذلل نفسك على اعتبارها، ولا قوة قائمة بذاتها يمكن أن تتحدى مشيئته. نحن نعيش في عالم متعدد فيه صور الملك أمام العين: هذا يملك المال، وذاك يملك المنصب، وثالث يملك السلاح، ورابع يملك المنابر، وخامس يملك قلوباً مفتونةً به، فتتوهم النفس من كثرة هذه الصور أن الملك موزع بين الناس، وأن كل واحد منهم قد اقتطع من سلطان الوجود نصيباً مستقلاً، ثم تأتي

سُورَةُ الْمُلْكِ | حِينَ يَسْقُطُ وَهُمْ الْأَمْتَلَاكِ

السورة لتضغط الحقيقة كلها في جملة واحدة: ﴿يَبْدَهُ الْمُلْكُ﴾؛ ليس بعض الملك، ولا ملك السماء دون الأرض، ولا ملك الآخرة دون الدنيا، ولا ملك المصائر دون الأسباب، بل الملك، معرفةً بأل كأنها تستوعب كل ما يصدق عليه اسم سلطان وتدير وامتلاك.

وحين يستقر هذا المعنى في القلب يتغير معنى الخوف كله؛ لأن أكثر مخاوف الإنسان تنشأ من المبالغة في تقدير ما بأيدي الخلق، فيخاف صاحب السلطة كأنه يملك مصيره، ويخاف صاحب المال كأنه يملك رزقه، ويخاف المجتمع كأنه يملك قيمته، ويخاف المستقبل كأنه كائن منفصل عن تدبير الله، ويخاف فقد الأشياء كأنها كانت ملكه حقيقةً ثم سُرقت منه، بينما تعيد الآية تركيب الوعي من جذوره: إن الذي في يد الناس لم يخرج لحظةً من ملك الله، وإنما جعله بينهم أسباباً وابتلاءات، وما من سلطان بشري إلا وهو سلطان مستعار، وما من يدٍ تمسك شيئاً إلا وهي ممسوكة بقدر الله، وما من باب يبدو مغلقاً إلا ومفتاحه في الملك الأعلى، وما من قوة تستعرض نفسها في الأرض إلا وهي تتحرك داخل حدود أذن لها بها، ولو شاء الله لانقلبت القوة عجزاً، والاجتماع تفرقاً، والمنعة خوفاً، والثراء فقراً، في لحظة لا تملك الأسباب تفسير سرعتها.

وحين تقول السورة ﴿الْمُلْكُ﴾ فإنها لا تتحدث فقط عن مساحة الكون، بل عن كل ما يقع داخلها من أحداث؛ فالله لا يملك الأشياء ساكنةً فحسب، بل يملك حركتها وصيرورتها

سُورَةُ الْمُلْكِ | حِينَ يَسْقُطُ وَهُمْ الْأَمْتَلَاكِ

ومآلاتها، يملك الميلاد والموت، والصحة والمرض، والانتصار والانكسار، والظهور والخفاء، والاجتماع والفراق، والفتح والإغلاق، والخصب والجذب، والطمأنينة والخوف، وكل ذلك يجري تحت سلطان الحكمة التي قد يخفى علينا وجهها ولا يخرج خفاؤها عن كونها حكمة. وهذه النقطة هي التي تنتشل المؤمن من الفوضى الداخلية حين تتبدل به الأحوال؛ لأنه لا يقرأ الأحداث كما يقرأها من يظن أن الكون انفلت من يد مديره، ولا يتعامل مع المفاجآت كما لو أن الله لم يكن يعلم بها قبل وقوعها، بل يعرف أن ما اضطرب عنده لم يضطرب عند ربه، وأن ما بدا له مفاجئاً لم يكن مفاجئاً في علم الله، وأن الطريق الذي انقطع في عينه لم ينقطع في التدبير، وأن الملك لا يزال في اليد نفسها التي كان فيها حين كانت الدنيا مطمئنة في نظره. ومن هنا ينشأ نوع من السكينة لا يقوم على ضمان ألا تتغير الأشياء، بل على اليقين بأن تغييرها لا يخرجها من سلطان الله.

ولعل أعمق ما تصنعه هذه الآية أنها تنزع من الإنسان كلمة «لي» بالمعنى المطلق، ثم تعيدها إليه بعد تهذيبها؛ هذا مالي، وهذا بيتي، وهذا جسدي، وهذا ولدي، وهذا منصبي، وهذا الوقت وقتي، وهذا المستقبل الذي أخطط له، وهذه القدرة قدرتي. لا تمنعك الآية من استعمال لغة الملكية العرفية التي تنتظم بها حياة الناس، لكنها تطهرها من الوهم الميتافيزيقي الخطير: أنك تملك شيئاً على الحقيقة خارج ملك الله. أنت لا تملك جسداً بمعنى الاستقلال

سُورَةُ الْمُلْكِ | حِينَ يَسْقُطُ وَهُمْ الْأَمْتَلَاكُ

به؛ بدليل أنك لا تملك أن تمنع عنه الهرم، ولا أن تؤخر عنه الموت إذا جاء أجله. ولا تملك ولدك بمعنى الضمان؛ لأن قلبه ومستقبله ورزقه وعمره ليست في يدك. ولا تملك مالك بمعنى العصمة من زواله؛ فكم من مال أصبح خبراً بعد أن كان حصناً. ولا تملك يومك كاملاً؛ لأن نبضة واحدة قد تقسمه إلى «قبل» و«بعد». إنما أنت مستخلف، والمستخلف لا يتصرف كمالك مطلق، بل كعبد مؤتمن، وهذه واحدة من أعمق ثمرات تدبر الملك: أن نتعامل مع النعم بأدب العارية لا بغرور الاستحقاق.

ثم يختم صدر السورة بقوله: ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، وكأن الملك لو ذكر وحده ربما مرّ بخاطر الإنسان معنى السلطة التي تملك نظرياً ولا تنفذ إرادتها دائماً، فجاء وصف القدرة ليقطع الطريق على كل تصور بشري ناقص؛ فلك الله ليس ملكاً رمزياً، ولا سيادة اسمية، ولا سلطاناً يحتاج إلى أعوان يمدونه بالقوة، بل ملك مقتدر بقدرته مطلقة لا يخرج عنها شيء. وعبارة ﴿عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ من تلك العبارات التي نحفظها منذ الصغر حتى تكاد الألفة تحجب زلزالها المعرفي؛ لأنك إذا أعدت إليها دهشتها الأولى أدركت أنها كافية وحدها لتغيير نظرتك إلى المستحيل. الإنسان يقيس الإمكان بما يعرفه من قدراته، فإذا انسدت أمامه الوسائل قال: لا يمكن، وإذا ضاقت عليه الحسابات قال: انتهى، وإذا فقد باباً حسب أن البيوت كلها بلا أبواب، لكن المؤمن حين يوقن أن الله على كل شيء قدير لا

سُورَةُ الْمُلْكِ | حِينَ يَسْقُطُ وَهُمْ الْأَمْتَلَاكِ

يتجاهل قوانين الواقع، ولا يعيش أوهاماً حاملة، وإنما يعرف أن قوانين الواقع نفسها مخلوقة، وأن الأسباب ليست آلهة، وأن رب الأسباب قادر على أن يفتح من حيث لا تصل الحسابات البشرية.

والمعنى هنا أعمق من مجرد التسرية على النفس في الشدائد؛ إنه يعيد بناء مفهوم التوكل نفسه، فالتوكل ليس أن تقف بلا عمل منتظراً خرق الأسباب، بل أن تعمل داخل الأسباب دون أن تؤهلها، وأن تمسك بها بيدك بينما يبقى قلبك متعلقاً بمن يملكها، وأن تعرف أن نجاح السبب ليس ناشئاً من ذات السبب، كما أن تعطله لا يعني تعطل القدرة الإلهية. ولذلك فإن المؤمن الحق يجمع أمرين يبدو أنهما يتعارضان في نظر العقل الكسول: يأخذ بالأسباب بأقصى ما يستطيع، ثم لا يمنحها في قلبه ذرةً من مقام الربوبية؛ يبني، ويخطط، ويتعلم، ويتحرك، ويستشير، ثم يعلم أن النتيجة ليست ملكاً لذكائه. وما أفسد الإنسان إلا أحد طرفين: قوم تركوا الأسباب باسم التوكل، وقوم عبدوا الأسباب باسم الواقعية، والقرآن يحزر القلب من الخطأين معاً؛ امشِ في الأرض، لكن تذكر أن الأرض ذلول بتذليل الله، وكل من الرزق، لكن تذكر أنه ﴿رَزَقَهُ﴾، وانظر إلى الطير وهو يبسط جناحه، لكن لا تنس من الذي يمسكه.

سُورَةُ الْمُلْكِ | حِينَ يَسْقُطُ وَهُمْ الْأَمْتَلَاكِ

وحين تقرأ ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ بعد ﴿بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾ ينفتح في القلب باب رجاء لا

يليق به اليأس؛ لأن اليأس في أعمق صوره ليس مجرد حزن، بل خلل في تقدير القدرة. قد

يكون الشيء متعذراً عليك، نعم، وقد تغلق أبوابه في وجهك، وقد لا ترى له طريقاً، لكن

الفرق هائل بين أن تقول: «أنا لا أقدر» وأن ينزلق قلبك إلى شعور مستتر بأن «لا شيء

يمكن أن يتغير». الأولى معرفة بحدودك، والثانية غفلة عن القدرة الإلهية. المؤمن يعرف

ضعفه ولا يحوله إلى عقيدة في ضعف الوجود، ويعرف أن الحسابات البشرية قد تبلغ نهايتها

بينما لا تبلغ قدرة الله نهايةً أصلاً، ولهذا ظل الدعاء ممكناً في أشد اللحظات استحالةً؛ فزكريا

عليه السلام دعا والكبر قد بلغ منه مبلغه وامرأته عاقرة، وموسى عليه السلام وقف والبحر

أمامه والعدو خلفه، وإبراهيم عليه السلام أُلقي في النار، وكل هذه المشاهد تقول إن حدود

الإنسان ليست حدوداً لقدرة الله.

ومع ذلك فإن الآية لا تعلمنا أن نجعل القدرة الإلهية خادمةً لأهوائنا؛ فالذي بيده الملك هو

الحكيم، وما يقدر عليه سبحانه لا يعني أنه يحقق للعبد كل صورة يطلبها كما تخيلها، لأن

العبودية ليست أن تؤمن بأن الله قادر على تنفيذ خطتك، وإنما أن تؤمن بأن ملكه وقدرته

وحكمته أوسع من خطتك نفسها. وربما كانت أعظم استجابة لدعاء ما أن يُصرف عنك ما

طلبته، وربما كانت الرحمة كامنَةً في باب أغلق، وربما أراك الله قدرته لا بأن أعطاك ما

سُورَةُ الْمُلْكِ | حِينَ يَسْقُطُ وَهُمْ الْأَمْتَلَاكِ

تمنيت، بل بأن أعاد تشكيل قلبك حتى لم تعد تحتاجه بالطريقة القديمة. وهنا ترتفع العقيدة من مستوى «الله قادر أن يعطيني» إلى مقام أصفى: «الله يملك أمري كله، وأنا عبد بين يديه، وسأدعوه وأسعى وأرجو، ثم أَرْضَى بما يجريه من حكمته».

هذه إذن أول وقفة في سورة الملك: قبل أن تسأل ماذا أملك، اسأل من المالك؛ وقبل أن تحسب قوة خصومك، تذكر أين الملك؛ وقبل أن تياس من انسداد طريق، تذكر من الذي لا يعجزه شيء؛ وقبل أن تغتر بنعمة في يدك، تذكر أنها ما دامت عندك فإنما بقيت بإبقاء الله لها؛ وقبل أن ترتجف من مستقبل لم يأت، تذكر أن المستقبل لا يولد خارج الملك. وحين ينزل هذا اليقين من العقل إلى القلب يتغير وزن الأشياء كلها، فلا يعود صاحب القوة كبيراً جداً، ولا المفقود كبيراً جداً، ولا المستقبل مخيفاً جداً، ولا النفس نفسها مرَكِّباً كبيراً جداً؛ لأن السورة قد وضعت كل شيء في مكانه الصحيح من أول آية: الملك لله، والقدرة لله، والعبد عبدٌ في ملك الله.

الآية الثانية: الحياة ليست ساحة امتلاك بل ميدان امتحان

﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾

سُورَةُ الْمُلْكِ | حِينَ يَسْقُطُ وَهُمْ الْأَمْتَلَاكِ

ما إن تقرر السورة أن الملك كله لله حتى تأتي بالسؤال الذي ينبغي أن يتولد فوراً في قلب الإنسان: إذا كان الله هو المالك، فما موقعك أنت في هذا الملك؟ هل جئت لملك؟ هل جئت لتبقى؟ هل جئت لتجمع أكبر قدر ممكن من الأشياء ثم ترحل عنها؟ فتأتي الآية الثانية كأنها تصحح تعريف الحياة من جذوره: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ﴾. وهذا التعبير وحده كافٍ لزلزلة التصور الساذج الذي يرى الموت مجرد انقطاع يقع في آخر الحياة؛ فالآية تجعل الموت والحياة معاً داخل دائرة الخلق والتقدير، لا الحياة وحدها. الموت ليس ثقباً أسود خرج عن نظام الوجود، ولا فوضى طرأت على مشروع الحياة، ولا حادثاً لم يكن له موقع في التدبير، بل مخلوق داخل الحكمة، كما أن الحياة مخلوقة داخلها. نحن نرى الحياة بناءً والموت هدمًا، لكن الآية تنقلنا إلى مستوى أعلى من الرؤية: كلاهما جزء من الامتحان الكبير الذي تُقاس فيه حقيقة الإنسان.

وليس من العبث أن يتقدم الموت على الحياة في الذكر هنا؛ فكأن السورة التي تريد أن تحرر الإنسان من سطوة الدنيا تضع النهاية أمام عينيه قبل أن تحدّثه عن الطريق، حتى لا يقرأ الحياة منفصلةً عن مآلها. نحن، بطبيعتنا، نضع الموت في آخر الصورة، بل نحاول أن ندفعه خارجها تماماً، ونبني أيامنا كأنها سوف تتكاثر بلا نهاية، ونؤجل المصالحات والتوبات والمشروعات الجادة وكأن الزمن حساب مفتوح لا يُغلق، بينما يأتي القرآن فيضع الموت

سُورَةُ الْمُلْكِ | حِينَ يَسْقُطُ وَهُمْ الْأَمْتَلَاكِ

قبل الحياة في الجملة، كأنه يهمس للقلب: اقرأ عمرك من نهايته كي تفهم بدايته. فإن الإنسان إذا تذكر النهاية لم يكره الحياة، بل عرف قيمتها، ولم يزهد في العمل، بل صار أشد حرصاً على ألا ينفق أيامه في ما لا يستحق، لأن الذي يعلم أن الطريق محدود لا يبعثر خطواته كما يبعثرها من يتوهم أنه خالد.

ثم تأتي علة الخلق في قوله: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ﴾، وهنا يسقط وهم آخر من أوهام الإنسان: أن الحياة صُممت أساساً لكي تكون مريحة. ليست هذه دار الجزاء النهائي، ولذلك فإن انتظار حياة خالية من النقص هنا يشبه انتظار خاصية في شيء لم يُخلق لها؛ الدنيا دار ابتلاء، والابتلاء لا يعني أن كل لحظة فيها ألم، كما لا يعني أن النعمة خارجة عن الاختبار، بل النعمة نفسها ابتلاء، والصحة ابتلاء، والمال ابتلاء، والجاه ابتلاء، كما أن المرض والفقد والحرمان ابتلاء. والناس عادةً لا يسمون حياتهم امتحاناً إلا حين يتألمون، فإذا اتسعت عليهم الدنيا ظنوا أنهم خرجوا من قاعة الامتحان، مع أن أشد الاختبارات أحياناً يأتيك في صورة نعمة واسعة: ماذا ستفعل حين تستطيع؟ كيف سيكون قلبك حين يستغني؟ هل يزيدك المدح تواضعاً أم يخلق فيك صمناً خفياً؟ هل تستعمل المال جسراً إلى الخير أم سوراً يحجبك عن المحتاج؟ هل ينقلك النجاح إلى الشكر أم إلى وهم الاستحقاق؟

سُورَةُ الْمُلْكِ | حِينَ يَسْقُطُ وَهُمْ الْأَمْتَلَاكُ

ثم تبلغ الآية موضعاً عجيباً في دقته: ﴿إِيْكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾، ولم تقل: أكثركم عملاً. وهنا ينهار معيارُ بشري ضخم؛ لأن الإنسان مولع بالعدد: كم فعلت؟ كم كتبت؟ كم أنجزت؟ كم جمعت؟ كم عرفك الناس؟ كم بلغ أثر اسمك؟ بينما يضع القرآن الميزان في موضع آخر: أحسن. وقد يكون العمل كثيراً وخفيفاً في ميزان الحقيقة، وقد يكون قليلاً في أعين الناس لكنه ممتلئاً بالإخلاص والصدق والصواب حتى يثقل بما لا تلتقطه المقاييس الظاهرة. والإحسان هنا يوقظ في النفس سؤالين لا غنى عنهما: هل كان العمل لله؟ وهل كان على الوجه الذي يحبه الله؟ فليس كل إخلاص يصحح فعلاً باطلاً، كما أن صحة الفعل في الظاهر لا تنفع قلباً أراد به غير الله. وكأن السورة منذ بدايتها تؤسس إنساناً لا تخدعه كثرة حركته؛ لأنه يعرف أن كثرة الحركة قد تكون أحياناً طريقة راقية للهروب من السؤال الأصعب: لماذا أفعل ما أفعل؟

وكم في كلمة ﴿أَحْسَنُ﴾ من رحمة خفية؛ لأن الله لم يجعل امتحان الحياة في ما يتعذر على الإنسان بلوغه، ولم يقل أيكم لا يخطئ، ولا أيكم لا يضعف، ولا أيكم يؤدي الحياة بلا كسر، وإنما جعل التنافس في تحسين العمل، وكأن باب الرجوع مفتوح دائماً، وباب الترتي مفتوح دائماً، وباب تصحيح القصد مفتوح دائماً. تستطيع بعد كل عثرة أن تسأل: كيف أجعل الخطوة التالية أحسن؟ وبعد كل تقصير: كيف يكون ما بقي من عمري خيراً مما مضى؟

سُورَةُ الْمُلْكِ | حِينَ يَسْقُطُ وَهُمْ الْأَمْتَلَاكِ

وبعد كل نعمة: كيف أستمع لها استمعاً لأجمل؟ وهذا يحول الدين من حملٍ يطالبك بصورة مثالية مستحيلة إلى طريق يطالبك بالصدق في السير نحو الأحسن.

والغريب أن أكثر الناس يختبرون جودة حياتهم بما حصلوا عليه، بينما القرآن يختبرها بما صار عليه عملهم. نسأل: كم ربحت؟ والآية تسأل: كيف عملت؟ نسأل: ماذا ملكت؟ والآية تسأل: ماذا أحسنت؟ نسأل: كم عشت؟ والآية تسأل: ماذا فعل بك ما عشت؟ فقد يعمر إنسان تسعين عاماً ولا يكاد يضيف إلى روحه شيئاً، وقد يمر آخر بعمر أقصر لكنه يملأ أيامه بصدق يجعل سنواته أكثر كثافةً في ميزان المعنى. المسألة ليست طول الرحلة وحده، بل نوع الخطوات التي مشيتها، ولا اتساع الفرص وحده، بل الطريقة التي أجبت بها عن سؤال الامتحان.

ثم تختم الآية باسمين يبدوان للوهلة الأولى على طرفي المشهد: ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾. العزيز الذي لا يغلب، والغفور الذي يغفر، فالحياة ليست امتحاناً يديره عاجز لا يملك محاسبتك، ولا امتحاناً يديره منتقم يتربص بزلاتك، بل أنت بين عزّة تمنعك من الاستهانة بالأمر، ومغفرة تمنعك من اليأس إذا أخطأت. وما أجمل هذا التوازن في بناء الضمير: لو عرفت العزة وحدها ربما أكل الخوف قلبك، ولو تعلقت بالمغفرة منفصلةً عن العزة ربما استهانت

سُورَةُ الْمُلْكِ | حِينَ يَسْقُطُ وَهُمْ الْأَمْتَلَاكِ

النفس بالذنب، لكن القرآن يضعك بين الجلال والرجاء، بين الهيبة والأنس، بين أن تعرف أنك لا تغفلت من ملكه وأن تعرف أنك لا تُطرد من رحمته إذا عدت إليه.

إِنَّ ﴿الْعَزِيزُ الْغُفُورُ﴾ تريبك على ألا تفهم المغفرة ضعفًا ولا العزة قسوة؛ فهو يغفر وهو العزيز، ويعفو وهو القادر، ولا تنقص مغفرته من هيئته شيئًا كما لا تمنع عزته باب الرجوع. وهذا من أعظم ما يحتاجه القلب في رحلته؛ لأن بعض الناس حين يذنب يقوده تعظيم الله إلى اليأس، وبعضهم يقوده الرجاء إلى التهاون، وكلاهما أخطأ الطريق. المؤمن يعرف أن الذي عصاه عزيز، فيستحي ويخاف، ويعرف أنه غفور، فيعود ولا يقنط. وإذا اجتمع هذان الاسمان في القلب وُلد منهما توبة ناضجة لا تقوم على الرعب المجرد ولا على الأمانى الفارغة.

ومن هنا نفهم أن الآيتين الأوليين قد وضعتا أساس السورة كلها في كلمات قليلة: الملك لله، والقدرة لله، والحياة امتحان، والموت جزء من الخطوة، والمطلوب حسن العمل، والرب عزيز غفور. وحين تستقر هذه المعاني لم يعد الإنسان يستطيع أن ينظر إلى يومه كما كان ينظر إليه؛ لأن اليوم لم يعد مجرد أربع وعشرين ساعة ينبغي قتل فراغها، بل قطعة من الامتحان، والنعمة لم تعد مجرد متعة بل سؤال، والألم لم يعد مجرد حادث بل موضع جواب، والنجاح لم يعد شهادة استحقاق بل اختبار شكر، والفشل لم يعد حكمًا نهائيًا بل امتحانًا في الصبر

سُورَةُ الْمُلْكِ | حِينَ يَسْقُطُ وَهُمْ الْأَمْتِلَاكِ

والرجوع، والموت لم يعد ذلك الغريب الذي يقتحم الحياة من خارجها، بل الحد الذي يمنع الوقت ثقله ويمنع اللحظة من أن تكون بلا ثمن.

وهكذا، قبل أن ترفع السورة أبصارنا إلى السماء في الآية التالية، تكون قد أصلحت الأرض التي نقف عليها في داخلنا؛ عرّفنا من المالك، وعرّفنا ما الحياة، وعرّفنا لماذا نعيش، ثم ستقول لنا بعد ذلك: انظروا إلى الأعلى. وكأن من لا يعرف معنى حياته لن يحسن قراءة السماء، ومن ظن نفسه مالكا لن يرى في الكون إلا مادة للاستعمال، أما من عرف أنه ممتحن في ملك الله فإنه إذا رفع بصره إلى السماوات رأى أكثر من نجوم ومسافات؛ رأى نظاماً يعلمه، وإتقاناً يوبخه، وجمالاً يرده إلى صاحبه، ورأى في كل طبقة من طبقات السماء شهادة جديدة على أن الملك الذي افتتحت به السورة ليس فكرة مجردة، بل حقيقة مكتوبة على صفحة الوجود كله.

حين يرفع القرآنُ بصرَكَ إلى هندسة السماء

الآية الثالثة: السماء التي تُسْقَطُ غرورَ العين قبل أن تُريها الجمال

﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا^ط مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَافُوتٍ^ط فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ﴾

بعد أن عرّفنا السورة بمن يملك، ولماذا خلق الموت والحياة، تنتقل بنا فجأةً إلى أعلى، كأنها لا تريد للعقيدة أن تبقى معنىً محفوظاً في الداخل، بل تريد أن تمتد لها طريقاً من القلب إلى الأفق، ومن الإيمان المجرد إلى المشاهدة؛ فتقول: ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا﴾، وهنا يتحول النظر إلى عبادة، ويتحول الفضاء الذي طالما مررنا تحته بلا اكتراث إلى صفحة من صفحات البرهان، ويجد الإنسان نفسه أمام بناء يفوق قدرته على الإحاطة، طبقات متناسقة في نظام لا يملكه ولا يديره ولا يستطيع أن يضيف إلى بقاءه لحظة واحدة. وليس المقصود من هذا المشهد أن يجعل القرآن الإنسان متلقياً سلبياً أمام عظمة الكون، بل أن يعلمه كيف يقرأ؛ فالسمااء في القرآن ليست سقفاً صامتاً فوق الرأس، وإنما حجة معلقة فوق الغفلة،

سُورَةُ الْمُلْكِ | حِينَ يَسْقُطُ وَهُمْ الْأَمْتَلَاكِ

وكلما ارتفع البصر إليها انخفض غرور صاحبه إن أحسن النظر، لأن الأشياء الهائلة حين

تجلى للروح على حقيقتها تفضح ضآلة تلك الذات التي كانت تتخيل نفسها مر كزاً للوجود.

وفي قوله ﴿طِبَاقًا﴾ إحساس بالنظام والترتيب والتراكب المحكم؛ ليست السماوات فوضى

متناثرة، ولا وجوداً يتهاوى بعضه على بعض بلا ميزان، بل خلقٌ يجري على تقدير، والبناء

الذي لا يستطيع الإنسان أن يبلغ أطرافه بعينه قد جعل الله فيه من النظام ما يكفي لأن

تحول رؤيته إلى يقين. وهنا تقابل السورة بين اتساع المشهد ودقة الصنعة، فلا تقول لك إن

العظمة في الضخامة وحدها، بل في أن هذه الضخامة نفسها لم تفسد النظام، وأن كثرة

المخلوقات لا تنتج اضطراباً في تدبير الخالق؛ لأن العجز البشري هو الذي تزداد عليه الأمور

كلما تكاثرت، أما قدرة الله فلا يثقلها عظيم ولا يشغلها شأن عن شأن. وهذه نافذة

هائلة للتأمل: أنت قد تضطرب أمورك إذا ازدادت مسؤولياتك القليلة، وقد يختلط عليك

أمرٌ بيتٌ بعملٍ بموعِدٍ بقلبي على مستقبل، ثم تنظر إلى كون تتداخل فيه من وجوه النظام ما

لا يحيط به عقلك، وكل ذلك قائمٌ بأمر الله لا يفوته شيء ولا يختلط عليه شيء، فتعلم من

السماء معنىً من معاني الطمأنينة: أن ربك لا تزدحم عليه حاجاتك، ولا تشغله دعوتك عن

دعوة غيرك، ولا يضل عنده وجع صغير في زحام هذا الوجود العظيم.

سُورَةُ الْمُلْكِ | حِينَ يَسْقُطُ وَهُمْ الْأَمْتَلَاكِ

ثم تأتي الجملة التي تقلب علاقتنا بالجمال من مجرد إعجاب إلى معرفة: ﴿مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَافُوتٍ﴾. وما أبداع أن يأتي اسم الرحمن هنا؛ فالسورة لم تقل فقط: في خلق القادر، ولا في خلق العزيز، وإنما نسبت هذا التناسق إلى الرحمن، وكأنها تربط بين انتظام الوجود وآثار الرحمة، فتخبر القلب أن الرحمة ليست معنىً وجدانياً محصوراً في لحظات العفو، بل لها آثار في أصل الخلق وفي قابلية العالم للحياة وفي انتظام ما حولنا على نحو يسمح للإنسان أن يوجد ويتنفس ويفكر ويمشي ويتأمل. إننا غالباً نبحث عن الرحمة حين ينكشف الكرب، ولكن هذه الآية تعلمنا أن نقرأ الرحمة أيضاً في أن السماء لم تنهدم، وأن النظام لم يتفكك، وأن العالم لم يصبح كل صباح فوضى جديدة تحتاج قوانين أخرى، وأنتك حين تستيقظ تجد الكون قد حافظ لك على انتظامه الذي ألفته حتى كدت تنسى أنه نعمة.

أما ﴿مِنْ تَفَافُوتٍ﴾ فليست دعوةً ساذجةً إلى إنكار الفروق بين المخلوقات، فالتنوع ظاهر، والاختلاف مشهود، وإنما المعنى في السياق نفي الاختلال والتناقض والاضطراب الذي يقدح في إحكام الخلق؛ فهناك فرق بين التنوع الذي يزيد النظام جمالاً وبين التفاضل الذي يدل على خلل في الصنعة. ولعل هذه اللفتة تعيد ترتيب مفهوم الجمال في عقل الإنسان: ليس الجمال أن تتشابه الأشياء، بل قد يكون في اختلافها حين تنتظم داخل وحدةٍ أعلى، كما تختلف النجوم في مواقعها ولا يفسد ذلك لوحة السماء، وتختلف الفصول ولا يفسد

سُورَةُ الْمُلْكِ | حِينَ يَسْقُطُ وَهُمْ الْأَمْتَلَاكِ

ذلك دورة الحياة، وتختلف طبائع البشر وقدراتهم وأدوارهم، ثم تكون الحكمة في أن يضع كل واحد نفسه في موضع العبودية الذي يناسب ما أعطي. كثير من صراع النفس يولد من طلب التشابه حيث خلق الله التنوع؛ ينظر الإنسان إلى غيره فيريد نعمته وملاحم طريقه ومواهبه ومكانته، ثم ينسى أن التناسق لا يعني التطابق، وأن بعض جمال الخلق قائم على أن تكون الأشياء مختلفةً من غير أن تكون متناقضة.

ثم لا يكتفي القرآن بأن يخبرك بالإحكام، بل يتحدأك أن تنظر: ﴿فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ﴾. وهذه من أعظم الآيات في تربية العقل المؤمن؛ لأنها لا تخشى النظر، بل تستدعيه، ولا تقول للإنسان: أغلق عينك حتى تؤمن، وإنما تقول له: أعد النظر. فتدير الوحي هنا لا يبني الإيمان على الهرب من السؤال، بل على النظر الذي يزداد كلما ازداد صاحبه صدقاً في الطلب. ﴿فَارْجِعِ الْبَصَرَ﴾؛ لا تكتف بنظرة عابرة، ولا تجعل الألفة عذراً عن التأمل، ولا تقل إنك رأيت السماء آلاف المرات فكأنك انتهيت منها، لأن الذي ينتهي ليس الآية بل دهشتك، والذي يهرم ليس الكون بل عينك حين تعود. والقرآن يعيد تدريب البصر على البراءة الأولى التي ترى في المؤلف عجباً، لأن أخطر ما تفعله العادة بالأشياء أنها لا تغير حقيقتها، وإنما تخدر إحساسنا بها؛ فالشمس لا تصبح أقل عجباً لأنها

سُورَةُ الْمُلْكِ | حِينَ يَسْقُطُ وَهُمْ الْأَمْتَلَاكِ

طلعت بالأمس، والقلب لا يصبح أقل إعجازاً لأنه نبض منذ ولادتك، والماء لا يصير أقل نعمةً لأنك شربته ألف مرة.

و﴿هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ﴾ سؤال يحرك العقل ولا يلقنه الإجابة باردة؛ ابحث عن الشقوق، فتش عن موضع انهيار، اختبر هذا البناء بعينك بقدر ما تبلغ، ثم لاحظ أن السؤال يعود إليك من السماء: وماذا وجدت؟ كأن القرآن لا يريد منك أن تتلقى الأحكام كفكرة، بل أن تكتشف عجزك عن العثور على ما ينقصها في المشهد الذي أمرت بالنظر فيه. وهنا يظهر نوع رفيع من التواضع المعرفي؛ فالإنسان كثيراً ما يتعامل مع عقله كأنه قاضٍ على الوجود كله، وكأن ما لم يدرك حكمته صار بلا حكمة، وما لم يفهم سره صار بلا معنى، وما لم يرّ اتساقه حكم عليه بالفوضى، لكن الآية تربيته على أن يفصل بين حدود إدراكه وبين حقيقة الخلق؛ فقد يعجز عن فهم الحكمة ولا يعني ذلك غيابها، وقد يضيق بحدث ولا يعني ذلك أنه خرج من التدبير، وقد يرى جزءاً من الصورة ثم يحاكم بها الصورة كلها، كما قد ينظر شخص إلى حجر واحد من بناء عظيم ثم يظن أنه أحاط بخططه.

ومن هذه السماء يعود السؤال إلى داخل النفس: كم من الأشياء حكمنا عليها بالخلل لمجرد أننا رأينا منها طوراً واحداً؟ كم من الأقدار قلنا عنها في لحظة الألم: لماذا حدث هذا؟ ثم مرت السنوات فكشف بعضها عن رحمةٍ لم نكن نراها؟ وكم من باب بكينا عند إغلاقه، ثم

سُورَةُ الْمُلْكِ | حِينَ يَسْقُطُ وَهُمْ الْأَمْتَلَاكُ

عرفنا بعد زمن أن وراءه ما لم نكن نحتمل؟ وليس معنى هذا أن الإنسان يستطيع دائماً أن يدرك حكمة كل ما يقع، ولا أن الألم يزول بمجرد أن نصفه بالحكمة، بل المعنى أعمق: ألا نجعل قصور رؤيتنا معياراً نحاكم به كمال علم الله. من تدبر السماء ولم يجد فيها فطوراً ينبغي أن يتعلم أدباً مع تدبير خالق السماء؛ لا أدب الصمت عن السؤال المشروع، وإنما أدب العبد الذي يسأل ليهتدي، لا ليضع حكمته المحدودة فوق حكمة ربه.

إن في الآية إذن منهجاً كاملاً لبناء اليقين: انظر، ثم أعد النظر، ثم اعترف بحدود النظر. لا تعطيل للخواص، ولا عبادة لها؛ لا ازدراء للعقل، ولا تأليهه. وهذه الوسطية المعرفية من أجل ما يصنعه القرآن في الإنسان؛ فهو يحرر العقل من الخرافة حين يدعو إلى النظر، ثم يحرره من الغرور حين يريه أن النظر نفسه محدود. وحين ينجح القلب في هذا التوازن يصبح أكثر قدرة على رؤية العالم كما هو: آية لا إلهاء، دليلاً لا مالكا، مجالاً للعلم لا بديلاً عن الله.

الآية الرابعة: حين يعود البصر إلى صاحبه منكسراً

﴿ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئاً وَهُوَ حَسِيرٌ﴾

لا تكتفي السورة بالنظرة الأولى، ولا حتى بالرجعة الأولى؛ إنها تصر على أن يواصل الإنسان التفتيش، كأنها تعرف شهوة العقل إلى الاعتراض حين يتعجل، فتقول له: ﴿ثُمَّ ارْجِعِ

سُورَةُ الْمُلْكِ | حِينَ يَسْقُطُ وَهُمْ الْأَمْتَلَاكِ

الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ، أي كرر النظر، وأمعن فيه، ولا تخش أن ينهار الإيمان لأنك دقت،

فضعة الله لا تحتاج إلى حماية من السؤال الصادق. وهذا معنى عظيم في تربية المؤمن؛ لأن

اليقين القرآني ليس هشاً يخاف الاقتراب من المشهد، بل من طبيعته أن يزداد وضوحاً كلما

صَدَقَ النظر. إنما الخطر ليس في السؤال، بل في الهوى الذي يقرر الجواب قبل السؤال،

وليس في البحث، بل في أن تجعل غرورك هو المعيار الذي لا يقبل إلا ما يوافقه.

وفي لفظ ﴿كَرَّتَيْنِ﴾ ما يفيد التكرار والإمعان، لا مجرد عدتين ميكانيكيتين ينتهي بهما

النظر، وإنما المقصود أن تعاود حتى يتبين لك عجرك عن العثور على الخلل الذي تبحث عنه.

وهنا تتغير هوية البصر نفسه؛ فقد ذهب أولاً في هيئة مفتش يريد أن يختبر الخلق، ثم يعود

في نهاية الآية هو الذي انكشف ضعفه: ﴿يَنْقَلِبُ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾. ما أعجب

هذا الانقلاب؛ البصر الذي خرج من الإنسان كأنه رسول قوته يعود إليه حاملاً خبر

حدوده، والإنسان الذي أرسل عينه إلى السماء لعله يجد فطوراً يجد في نهاية الرحلة شيئاً

آخر: يجد فطوره هو، وتعبه هو، وقصور أدواته هو.

﴿خَاسِئًا﴾ كلمة شديدة القوة؛ فيها معنى الصغار والرجوع بعيداً عن مطلوبه، وكأن البصر

يُردُّ بعدما لم يجد ما كان يُطلب منه أن يجده. وليس المقصود إذلال الإنسان لذاته من أجل

الإذلال، وإنما إنقاذه من مرض أعمق: أن يظن أن عدم إحاطته بالشيء نقص في الشيء.

سُورَةُ الْمُلْكِ | حِينَ يَسْقُطُ وَهُمْ الْأَمْتَلَاكِ

كم يحتاج العقل إلى مثل هذا الخسوء المحمود حين يتكبر؛ لا ليحتقر نفسه، بل ليعرف حدها. فعظم أزمات الوعي لا تبدأ من الجهل البسيط، بل من الجهل الذي لا يعرف أنه جهل، ومن العقل الذي لا يرى حدود مجاله، ومن الإنسان الذي يتعامل مع ما أدركه كأنه كل ما يمكن أن يكون.

ثم تأتي ﴿وَهُوَ حَسِيرٌ﴾، أي قد أعياه التكرار وأتعبه النظر؛ واللفظة تكاد تجعلك ترى عيناً أرهقتها التحديق، لا لأن في السماء نقصاً أخفته المسافة، وإنما لأن طاقة العين محدودة أمام سعة الخلق. وهذه الصورة تحمل معنى وجودياً بديعاً: قد يكون التعب أحياناً ليس علامةً على فوضى العالم، بل على صغر الأداة أمام عظمتة. الإنسان يريد أن يفهم كل شيء، ويفسر كل قدر، ويعرف لماذا تأخر هذا ولماذا سبق ذاك، ولماذا أُعطي فلان ومنع آخر، ثم يتعب قلبه ويظن أن التعب دليل على اضطراب الحقيقة، وربما كان جزء منه نتيجة أنه حمل نفسه ما لم تُخلق للإحاطة به. إن العبودية لا تعني إطفاء السؤال، لكنها تعني أن تعرف متى يتحول السؤال من طلب للهدى إلى محاولة لامتلاك علم لا يملكه العبد.

وفي هذه الآية درس خفي لكل من يظن أن كثرة المعرفة ينبغي أن تنتج تضخماً في الذات؛ فالقرآن يصنع العكس: كلما نظرت أكثر عدت أكثر تواضعاً. العلم الحقيقي لا يجعل الإنسان أعلى من الكون، بل أشد إحساساً بسعته؛ وكل إجابة صادقة تفتح أمامه

سُورَةُ الْمُلْكِ | حِينَ يَسْقُطُ وَهُمْ الْأَمْتَلَاكِ

أبواب أسئلة جديدة، وكل اكتشاف يزيد مساحة ما يعلم أنه لا يعلم. ولذلك فإن التواضع ليس زينة أخلاقية للعلماء، بل ثمرة طبيعية للعلم إذا كان علماً حقاً؛ أما المتكبر بمعرفته فشكلته ليست أنه عرف كثيراً، بل أنه لم يعرف بعد حجم ما يجهل.

ويمكن أن نقرأ الآية نفسياً أيضاً؛ فالإنسان الذي يفتش باستمرار عن النقص في كل شيء قد يكون بحاجة إلى أن يعود ببصره إلى نفسه. بعض النفوس تعيش في وضع التفتيش الدائم: ترى العيب قبل الجمال، والنقص قبل النعمة، والخلل قبل النظام، ثم تنسح هذه العادة حتى يصبح العالم كله موضع تدمير، وربما كان جزء من الدواء أن يتعلم المرء من هذه الآية كيف يوازن نظره؛ ليس بأن ينكر الشرور والنقائص التي تقع في عالم التكليف البشري، وإنما بأن يدرك أن الخلق في أصله قائم على حكمة الله، وأن نفسه ليست مركز القياس، وأن كثرة الاعتراض لا تعني عمق الفهم. أحياناً يحتاج القلب إلى أن يرجع إليه بصره خاسئاً حسيراً من مطاردة السؤال الخطأ، حتى يبدأ في طرح السؤال الأصوب.

ولعل من أبلغ ما في هذا المشهد أن السماء لا تتحدث ولا تجادل؛ هي فقط قائمة في إحكامها، والإنسان هو الذي يكرر النظر حتى يتعلم. وهذا نموذج لطريقة القرآن في الاستدلال: لا يملأ أذنك بالجدل وحده، بل يأخذ يدك إلى المشهد ويقول: انظر. بعض

سُورَةُ الْمُلْكِ | حِينَ يَسْقُطُ وَهُمْ الْأَمْتَلَاكِ

الحقائق لا تحتاج إلى صخب البرهنة بقدر ما تحتاج إلى تحرير العين من البلادة؛ وحين تسترد العين دهشتها يصبح الصمت نفسه حجةً، ويصير انتظام السماء كلاماً بلا حروف.

الآية الخامسة: المصاييح التي تهدي العين، والشهب التي تذكر بأن السماء ليست زينةً فقط

﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ﴾

بعد أن أمرتنا السورة بالنظر إلى السماء من جهة إحكامها، تنقلنا إلى جانب آخر: جمالها. ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ﴾؛ والقرآن هنا لا يقدم كوناً وظيفياً جافاً، وإنما كوناً فيه زينة، كأن الجمال نفسه جزء من الآية. فالنجوم التي يرفع إليها الإنسان عينه في الليالي الصافية ليست مجرد أجسام بعيدة في حساباته، بل مصاييح في التعبير القرآني، واللفظة تنقل المشهد من البرودة إلى الأُنس؛ السماء البعيدة تتحول في الحس إلى سقف مضاء، والليل الذي قد يكون موحشاً تتخلله نقاط نور تشبه رسائل معلقة في العتمة.

ولعل من المعاني التي ينبغي أن نتوقف عندها أن الله الذي خلق الكون بالغ الحكمة هو نفسه الذي زينّه؛ فالجمال ليس زيادةً لا ضرورة لها في الوجود، بل من دلائل الإنعام، والإنسان مفطور على أن يفعل به. نحن لا نحتاج إلى منظر السماء المرصعة حتى نبقي أحياء من جهة الوظيفة المباشرة وحدها، لكن الله جعل في العالم ما يغذي الروح كما جعل فيه ما

سُورَةُ الْمُلْكِ | حِينَ يَسْقُطُ وَهُمْ الْأَمْتَلَاكُ

يقيم الجسد، وجعل للعين نصيباً من البهجة كما جعل للمعدة نصيباً من الرزق. وهذا يعلم المؤمن ألا يزدرى الجمال المشروع كأنه ترف منفصل عن العبادة؛ فقد يكون تأمل منظر جميل باباً إلى معرفة المنعم إذا لم يحبس الإنسان عند الصورة وينس المصور.

لكن الآية لا تترك طويلاً في جمال المشهد، بل تقلب الزاوية: ﴿وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ﴾، فتكتشف أن ما تراه زينة قد يكون له في نظام الغيب وظيفة أخرى لا تحيط بتفاصيلها بحسك المباشر. وهذه النقلة من الجمال إلى الحراسة تربي العقل على ألا يحصر حقيقة الشيء في الوجه الذي يراه؛ فالوجود أوسع من ظاهر الحواس، والوحي يفتح للإنسان من الغيب ما لا يستطيع بلوغه بالتجربة وحدها. وليس للمؤمن أن يتكلف في تفسير الكيفيات التي لم يبينها النص، ولا أن يحول الخبر الغيبي إلى مادة لخيالات لا دليل عليها، وإنما يقف عند ما أخبر الله به، مؤمناً أن عالم الشهادة الذي نراه ليس كل العالم، وأن وراء الحسوس نظاماً من الغيب لا تسقط حقيقته لأن أدواتنا لا تصل إليه.

وهنا يظهر توازن قرآني آخر: السورة التي دعيتك قبل قليل إلى إرجاع البصر والتأمل في المشهود هي نفسها التي تحبرك الآن عن الغيب؛ فلا الحس وحده يكفي، ولا مجرد الدعوى تُقبل بلا وحي، وإنما يعيش الإنسان بين كتاب منظور يقرأه بعقله وحواسه، وكتاب مسطور يخبره بما وراء مدى هذه الحواس. وحين يفصل المرء أحدهما عن الآخر يختل تصوره؛ فمن

سُورَةُ الْمُلْكِ | حِينَ يَسْقُطُ وَهُمْ الْأَمْتَلَاكِ

حبس الحقيقة في المحسوس ضيق الوجود إلى قدر أدواته، ومن أهمل سنن المشاهدة والعقل باسم الغيب فتح باب الخرافة، أما القرآن فيجمع بين الأمرين بلا اضطراب: انظر بعينك حيث يمكن النظر، وآمن بخبر الله حيث ينتهي مدى عينك.

ثم تأتي الجملة الأخيرة: ﴿وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ﴾، وفيها انتقال من رجوم الشياطين في السماء إلى مصيرهم، وكأن السورة تريد أن تقول إن الشر ليس قوةً منفصلةً من الملك، ولا كياناً ينازع الله سلطانه على الوجود، بل هو محصور داخل قضاء الله وقدره، وله نهاية وعقوبة. وهذا مهم جداً في بناء رؤية المؤمن؛ لأن الإنسان حين يرى كثرة الشر قد يتسرب إلى نفسه شعور بأن الفساد خرج عن السيطرة، وأن الباطل صار قوةً ذاتيةً مستقلة، لكن السورة التي بدأت بـ ﴿بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾ لا تسمح لك بهذا التصور: حتى عالم الشياطين الذي يمثل الإغواء والتمرد ليس خارج سلطان الله، بل له حدود وله جزاء وله نهاية.

وهنا يبدأ ظل النار في الظهور داخل السورة قبل أن تنقلنا الآيات التالية إليها مباشرة؛ فبعد السماء المزينة، وبعد المصابيح، وبعد منظر النور، تلوح كلمة ﴿السَّعِيرِ﴾ كأنها صدع في المشهد الجميل، لتقول للإنسان إن الوجود ليس جمالاً بلا مسؤولية، وإن التأمل في السماء لا ينفع إذا بقي مجرد متعة بصرية لا تنتهي إلى إيمان وطاعة. فالكون في القرآن لا يطلب منك الإعجاب وحده، بل الموقف؛ كل آية كونية تستدعي سؤالاً أخلاقياً: ماذا ستفعل بعد أن

سُورَةُ الْمُلْكِ | حِينَ يَسْقُطُ وَهُمْ الْأَمْتَلَاكُ

عرفت؟ هل يزيدك الجمال قريباً، أم تستهلكه ثم تنسى واهبه؟ هل يقودك النظام إلى الخضوع، أم يبقى عقلك معجباً بذاته وهو يتأمل ما لم يصنعه؟

ومع نهاية هذه الآيات الثلاث نكون قد تعلمنا كيف يريد القرآن للإنسان أن ينظر إلى السماء: لا كزائر عابر يلتقط منها صورة، ولا كمالك معرفي يظن أنه أحاط بها، بل كعبد تتدرج به الرؤية من الأحكام إلى التواضع، ومن الجمال إلى الغيب، ومن النور إلى المسؤولية. لقد خرج البصر في الآية الثالثة يبحث، وعاد في الرابعة منكسراً أمام سعة الصنعة، ثم فتحت له في الخامسة نافذة الجمال والوظيفة والغيب، فكأن السماء أصبحت مدرسةً كاملة: تعلم العقل ألا يتكبر، وتعلم القلب ألا يعتاد النعمة، وتعلم الروح أن وراء ما ترى ما لا ترى، وتعلم الإنسان أن كل جمال في الوجود ينبغي أن يقوده إلى صاحبه، لا أن يحجبه عنه.

ومن هنا ستبدأ السورة انتقالاً مهيباً من السماء التي لم يجد فيها البصر فطوراً إلى مصير أناس وجدوا في قلوبهم فطوراً ولم يصلحوه، من نظام الكون إلى اضطراب الإنسان، ومن المصاييح إلى السعير، ومن النظر الخارجي إلى الاعتراف الداخلي. وكأن السؤال المقبل لن يكون: هل رأيت خلاً في السماء؟ بل: أين وقع الخلل إذن؟ وإذا كان الخلق من فوقك محكماً، فكيف أفسد الإنسان طريقه إلى الله؟ وكيف تصل النفس، وسط هذا الكون

سُورَةُ الْمُلْكِ | حِينَ يَسْقُطُ وَهُمْ الْأَمْتَلَاكِ

الناطق بالدلالة، إلى أن تكذب بربرها؟ هناك، عند أبواب جهنم، ستجيب السورة جواباً

موجعاً: لم يكن النقص في الآيات، وإنما في السمع الذي لم يسمع، والعقل الذي لم يعقل.

حين يصبح الندم معرفة متأخرة

الآية السادسة: المصير الذي يبدأ من رفض الحقيقة

﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ^{١٥} وَيُسَّ الْمَصِيرُ﴾

بعد أن رفعتنا السورة إلى السماوات، وأرتنا نظامها الذي لا يتخلله فطور، وزينتها التي تملأ الليل بالمصابيح، تهبط بنا فجأة إلى جهة أخرى من الوجود، إلى المصير الذي لا يراه الإنسان الآن بعينه ولكنه أخبر به من خلق العين والسماء والمصير جميعاً: ﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ﴾. وما أشد وقع الانتقال من المصابيح إلى جهنم؛ فكأن السورة تضع أمام الإنسان طريقتين من النور والنار، لا لتصنع ازدواجاً فنياً في الصورة فحسب، بل لتقول إن الكون الذي تراه جميلاً ليس مسرحاً بلا غاية، وإن الإنسان ليس متفرجاً يعبر بين النجوم ثم ينتهي إلى العدم، بل هو مخلوق مسؤول، وكل هذا الجمال الذي أحاط به لم يُعطه لكي ينسى صاحبه، وإنما ليكون جسوراً من الدلالة إليه.

سُورَةُ الْمُلْكِ | حِينَ يَسْقُطُ وَهُمْ الْأَمْتَلَاكِ

ولافت أن تقول الآية: ﴿كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ﴾، فتستعمل كلمة ربهم في موضع الوعيد، مع أن الربوبية تفيض بمعاني الخلق والتربية والتدبير والإنعام؛ فكأن في التعبير عتاباً مستتراً أشد من مجرد الإخبار عن الكفر: كيف يكفر الإنسان بمن رباه؟ كيف يجحد من أوجده من العدم، وأقام حياته على نعم لا يستطيع عدها، وساق إليه الهواء والماء والقدرة والعقل والسمع والبصر، ثم عاش في ملكه مستعملاً عطايه في الإعراض عنه؟ إن الجحود يصبح أشد قبحاً حين يُنسب إلى الرب الذي لم يكن للعبد وجوداً أصلاً إلا بخلقه، ولم تكن له لحظة حياة إلا بإمداده. ولذلك فإن القرآن لا يصور الكفر في حقيقته العميقة كمسألة ذهنية باردة، بل كاختلال في علاقة المخلوق بخالقه، وإنكار يمر من فوق بحر من النعم دون أن يستحي من المنعم.

ثم تقول السورة: ﴿وَبَشِّرِ الْمَصِيرُ﴾، وكأن كل الطرق التي سلكها الإنسان في الدنيا تُختصر أخيراً في هذه الكلمة: المصير. الإنسان في الحياة يفتتن كثيراً بالبدايات والواجهات واللمحات العابرة، فيحكم على الطريق بما فيه من لذة آنية أو مكسب قريب، بينما القرآن يربّي بصيرته على أن الطريق لا يُقوّم من أول خطوة، بل من نهايته. قد يكون في أول المعصية بريق، وفي أول الغرور لذة، وفي أول الاستقلال عن الله شعور زائف بالقوة، لكن السؤال الذي لا بد أن يوضع أمام كل اختيار هو: إلى أين يصير هذا؟ وفي المقابل قد يكون في الطاعة مشقة،

سُورَةُ الْمُلْكِ | حِينَ يَسْقُطُ وَهُمْ الْأَمْتَلَاكِ

وفي الصبر مرارة، وفي كبح الهوى حرمان عاجل، ولكن العاقل لا يحاكم الطريق من أمله القريب وحده، بل من المصير الذي يفضي إليه.

وإذا كانت السورة قد قالت في أولها: ﴿خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ﴾، فإنها هنا تبدأ بإظهار نتيجة الامتحان، فكأنها تربط البداية بالنهاية: الحياة سؤال، والمصير جواب. وليس الامتحان لعبة بلا تصحيح، ولا عمر الإنسان مسودة لا تُراجع، بل كل يوم يمضي يأخذ شيئاً من صفة الفرصة ويقترب من صفة الشهادة؛ فما دام العبد حياً يستطيع أن يغير، ويعود، ويستدرك، ويستغفر، أما حين يتحول الزمن إلى ماضٍ نهائي فإن الندم لا يعيد ورقة الامتحان إلى اليد.

ولهذا فإن ذكر النار في القرآن ليس دعوة إلى اليأس، بل إلى استعجال النجاة قبل أن يصير التحذير واقعاً. ما دام الإنسان يسمع الآية في الدنيا فإن وجودها أمامه رحمة؛ لأن الإنذار قبل الخطر نجاة لمن انتفع به، وإنما تصبح النار يأساً حين يصل إليها صاحبها وقد أغلق بنفسه أبواب الرجوع. ومن هنا ينبغي أن يقرأ المؤمن آيات الوعيد لا بعين من يتلذذ بعقوبة غيره، بل بعين خائف على قلبه، يسأل: ما الذي يمنعني أن أسلك طريق الغفلة إذا تركت نفسي لهواها؟ وأي نعمة أعظم من أن يخبرني الله بالنهاية وأنا لا أزال في الطريق؟

﴿إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورٌ﴾

هنا لا تكتفي السورة بذكر النار كحقيقة، بل تدخل القارئ إلى مشهدها حتى تكاد الحواس تشترك في تلقيه: ﴿إِذَا أُلْقُوا فِيهَا﴾، واللفظ نفسه يحمل معنى المهانة والسقوط وفقدان القدرة على التحكم بالمصير؛ فالإنسان الذي كان في الدنيا يمشي مختاراً، ويقرر، ويجادل، ويرفض، ويتأخر، ويقول سأفعل غداً، ينتهي هنا إلى فعل مبني على ما يقع عليه: أُلْقُوا. وهذه وحدها مأساة؛ لأن من أعظم نعم الدنيا أنك ما زلت فاعلاً، تستطيع أن تتحرك باتجاه النجاة، أما هناك فقد انقضى زمن المبادرة وبدأ زمن الجزاء.

ثم تأتي الحاسة الأولى في المشهد: ﴿سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا﴾. والنار هنا لا تُرى فقط، بل تُسمع، كأن لها نفساً مرعباً يتردد في أرجائها، وشهيقها يخلق في النفس صورة كائن هائل يلتهم ما يُلقى إليه. والقرآن حين يصنع هذه الصورة السمعية لا يهدف إلى الإثارة المجردة، وإنما إلى كسر التجريد الذي قد يجعل الإنسان يسمع كلمة «جهنم» حتى تصبح عنده مصطلحاً بارداً. إن بعض الحقائق تفقد أثرها حين تتحول إلى مفردات مألوفاً، فيعيد القرآن إليها حرارة المشهد: شهيق، فوران، غيظ، سؤال، اعتراف؛ حتى يستعيد القلب حساسيته تجاه النهاية.

سُورَةُ الْمُلْكِ | حِينَ يَسْقُطُ وَهُمْ الْأَمْتَلَاكِ

﴿وَهِيَ تَفُورٌ﴾؛ والفوران حركة لا سكون فيها، اضطراب متدفق لا يترك للنفس موضع

طمأنينة. وهنا يقابل المشاهد ما سبق من انتظام السماء؛ السماء في الآيات الماضية محكمة لا ترى فيها فطوراً، أما هنا فمشهد النار كله حركة ورهبة وعنف، وكأن السورة تريد أن تترك الفرق بين من دخل في انسجام العبودية مع نظام الخلق وبين من تمرّد حتى انتهى إلى موضع الجزاء. وليس هذا القول مبنياً على أن النار «فوضى»؛ فهي أيضاً مخلوقة بقدر الله، وإنما المقابلة شعورية: هناك نظراً إلى السماء يعيد إلى النفس سكونها أمام الأحكام، وهنا سماعاً للنار يهز القلب أمام العاقبة.

ولعل في الشبهق درساً آخر: أن بعض الحقائق ينبغي ألا تتعامل معها من بعيد. كثير من الناس يعرفون الموت نظرياً، ويعرفون الحساب نظرياً، ويعرفون الجنة والنار نظرياً، لكن المعرفة الباردة لا تغيرهم، لأن بينها وبين القلب مسافة. والقرآن يردم هذه المسافة بالمشهد؛ يجعلك تسمع، وترى، وتخيّل الوقوف، حتى تنتقل الآخرة من معلومة في العقيدة إلى حضور أخلاقي في الحياة. وما أحوج القلب إلى أن تكون الآخرة حاضرة بهذا المعنى، لا حتى يكره الدنيا، بل حتى يزنّها بحجمها الحقيقي، فلا يبيع الباقي بالعاور، ولا يضحّم حادثة اليوم حتى تنسيه المصير كله.

سُورَةُ الْمُلْكِ | حِينَ يَسْقُطُ وَهُمْ الْأَمْتَلَاكُ

الآية الثامنة: الغيظ الذي يكشف فداحة الإعراض

﴿تَكَادُ تَمَيِّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾

تبلغ الصورة ذروةً مرعبة حين تقول السورة: ﴿تَكَادُ تَمَيِّزُ مِنَ الْغَيْظِ﴾، أي تكاد تنقطع وتنفرق من شدة الغيظ، فيتحول العذاب إلى مشهد يكاد لا يحتمل نفسه. وليس الغرض أن يتصور الإنسان النار على مقاييس مشاعره البشرية، بل أن يتلقى شدة المشهد كما أراد النص أن يهز بها ضميره؛ فالقرآن هنا يضع أمام الغفلة صورةً تناسب فداحة ما كان يُسْتَهَانُ به في الدنيا. الذنب في لحظته قد يبدو صغيراً، والإعراض قد يبدو مجرد موقف فكري، والاستهزاء بالنذير قد يمر كعبارة، لكن الآخرة تكشف الوزن الحقيقي لما كان الإنسان يستخف به.

ثم تأتي حركة متكررة في قوله: ﴿كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ﴾، وكأن المشهد لا ينتهي عند شخص واحد، بل تتوالى جماعات كانت في الدنيا ربما تستقوي بكثرتها، وتطمئن إلى أن الأكرية معها، وتجند في الجماعة تسكيناً لضمير الفرد؛ فإذا الآخرة تفضح وهم الاحتماء بالعدد. كم من إنسان لم يسأل نفسه عن الحقيقة لأنه رأى الناس جميعاً يسرون في اتجاه ما، وكم من ضمير هداً لأنه قال: «الجميع يفعل ذلك»، وكم من باطل أخذ هيئته من كثرة أتباعه لا من

سُورَةُ الْمُلْكِ | حِينَ يَسْقُطُ وَهُمْ الْأَمْتَلَاكِ

قوة حخته، ثم تأتي الآخرة لتفرك بين قيمة الحق وكثرة السالكين، فالفوج لا ينجي الفوج، والجموع لا تغير حقيقة المصير.

وفي وسط النار يأتي السؤال: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾. وهذا من أشد الأسئلة إيلاماً؛ لأنه لا يسألهم: لماذا لم تصنعوا المستحيل؟ ولا: لماذا لم تعرفوا ما لم يكن في استطاعتكم معرفته؟ بل يسأل عن وصول النذير، عن إقامة الحجّة، عن الفرصة التي جاءت ثم لم تستثمر. والمعنى المرعب هنا أن العذاب لم يأتهم من فراغ، ولم يفاجؤوا بنظام أخروي لم يُخبروا به، بل كان هناك من أُنذِر، وكان هناك سمع يستطيع أن يسمع، وعقل يستطيع أن يعقل، ووقت يستطيع أن يتغير فيه المسار.

وما دام سؤال ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾ يتلى علينا في الدنيا، فهو في حقنا نحن أيضاً سؤال استباقي: كم نذير مر بنا؟ وليس النذير رسولاً بالمعنى التاريخي فقط، وإن كان الرسل أصل الإنذار وأعظمه، بل إن أثر إنذارهم باقٍ في الوحي الذي يصل إلينا، وتزيد عليه نذر الحياة التي توقظ القلب: موت قريب، جنازة نعبرها، جسد كان قوياً ثم ضعف، وجه كان ممتلئاً بالحياة ثم غاب، حلم ضاع، مرض أوقف سرعة الأيام، شيب تسلسل إلى الرأس، خبر موت شخص كان بالأمس يتكلم عن الغد. كم من هذه الأشياء مر علينا ثم عدنا بعدها إلى الغفلة

سُورَةُ الْمُلْكِ | حِينَ يَسْقُطُ وَهُمْ الْأَمْتَلَاكُ

كأن شيئاً لم يكن؟ إن النذير لا ينفع من يتقن تحويل كل صدمة إلى حادثة عابرة ثم يعود إلى النوم الداخلي نفسه.

الآية التاسعة: المحجة التي عُرِفَتْ ثم رُفِضَتْ

﴿قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِن أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ﴾

الجواب لا يحمل محاولة إنكار: ﴿بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ﴾. وهذه الجملة وحدها توجع؛ لأن المشكلة لم تكن في غياب الرسالة بل في موقفهم منها. جاءهم النذير، سمعوا، عرفوا أن هناك خطاباً يطالبهم بالمراجعة، ثم اختاروا التكذيب. إن الإنسان قد يظن أن مأساة الضلال دائماً هي نقص المعلومات، ولكن هذه الآية تكشف جانباً أشد تعقيداً: قد تأتي المعلومة ويقوم الدليل ويبقى القلب رافضاً؛ لأن الخلل ليس في العقل وحده، بل في الإرادة أيضاً. أحياناً لا يحتاج الإنسان إلى برهان جديد بقدر ما يحتاج إلى شجاعة أخلاقية تسمح له بأن يتبع البرهان الذي عرفه.

﴿فَكَذَّبْنَا﴾ كلمة تختصر انقلاباً كاملاً في الداخل؛ فالتكذيب ليس مجرد أن تمر عليك الحقيقة فلا تفهمها، بل أن تتخذ موقفاً منها، وقد يكون وراء هذا الموقف كبر أو هوى أو خوف على مصلحة أو رهبة من تغيير نمط الحياة. والحقيقة كثيراً ما تكون ثقيلة لا لأنها

سُورَةُ الْمُلْكِ | حِينَ يَسْقُطُ وَهُمْ الْأَمْتَلَاكُ

غامضة، بل لأنها تطلب ثمنًا؛ تطلب أن تتغير، أن تنزل عن عرش الذات، أن تترك عادة، أن ترد حقًا، أن تعترف بخطأ، أن تخرج من قلبك صمًا أحببته. ولهذا فإن بعض الناس لا يعادون الحجة لضعفها بل لقوتها؛ لأنها اقتربت من موضع لا يريدون أن يمسه.

ثم يقولون: ﴿مَا نَزَلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ﴾، فيتجاوز التكذيب شخص النذير إلى إنكار أصل التنزيل، وكأن النفس إذا أصرت على الرفض بدأت تبني لنفسها منظومة كاملة تحميها من الاضطرار إلى التراجع. انخطأ الأول نادرًا ما يبقى وحده؛ يحتاج إلى تبرير، ثم يحتاج التبرير إلى تبرير آخر، حتى يصبح الإنسان أسير بناء فكري شديده لكي لا يقول كلمة واحدة كان يمكن أن تنقذه: أخطأت. وما أثقل هذه الكلمة على النفس المتكبرة، وما أخف ثمنها إذا قيست بما تجره المكابرة من خسائر.

ثم يبلغ المشهد مفارقة موجعة: ﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ﴾. كانوا هم الضالين، لكنهم وصفوا النذر بالضلال؛ وهذه من أخطر آفات القلب حين ينقلب ميزانه حتى يرى المرض صحة والصحة مرضًا. ليس كل من يثق برأيه مصيبًا، ولا كل من يصف غيره بالضلال قد امتلك ميزان الهدى. قد يصل الإنسان إلى مرحلة تصبح فيها مفاهيمه نفسها جزءًا من أزمته؛ يسمي الكبر كرامة، والهوى حرية، والتفلسف شجاعة، والوفاء ضعفًا، والتوبة هزيمة،

سُورَةُ الْمُلْكِ | حِينَ يَسْقُطُ وَهُمْ الْأَمْتَلَاكِ

والحق تشدداً، حتى لا يعود محتاجاً إلى تغيير أفعاله فقط بل إلى إصلاح القاموس الذي يسمي به الأشياء.

وهنا يصير سؤال الهداية أعمق من أن تقول: هل أملك معلومات صحيحة؟ بل: هل أملك قلباً يسمح للمعلومة الصحيحة أن تهدمني وتعيد بنائي؟. فقد يعرف الإنسان شيئاً كثيراً عن الدين ويبقى أبعد عن هدايته من شخص أقل علماً لكنه أكثر تواضعاً للحق؛ لأن المعرفة باب، ولا يدخل الباب من جلس أمامه مفتوناً بعدد المفاتيح التي يحملها.

الآية العاشرة: الاعتراف الذي جاء بعد سقوط كل الأعذار

﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾

هذه من أكثر آيات السورة كشفاً لجذر الكارثة؛ فبعد كل ما قيل لا يلوم أهل النار نقص المعجزات، ولا غموض الطريق، ولا قلة الفرص، بل يقولون: ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ﴾. وهنا يقف القارئ أمام حقيقة ثقيلة: السمع موجود، والعقل موجود، ومع ذلك يقولون لو كنا نسمع أو نعقل؛ مما يدل أن وجود الأداة شيء واستعمالها في موضع الهداية شيء آخر. كم من إنسان له أذنان ولا يسمع إلا ما يوافق هواه، وله عقل حاد لكنه يستخدمه في

سُورَةُ الْمُلْكِ | حِينَ يَسْقُطُ وَهُمْ الْأَمْتَلَاكِ

الدفاع عن رغباته بدل فحشها، وله قدرة على التحليل لكنه يجعلها محامياً للذات لا قاضياً عليها.

السمع في القرآن ليس حركة الصوت إلى الأذن فقط، بل قد يكون إنصاتاً يفتح للقلب طريقاً إلى القبول؛ ولهذا يمكن أن يسمع الإنسان آية مئة مرة ولا يسمعها حقيقةً إلا في المرة التي سمح لها أن تتجاوز طبقة الألفة وتدخل إلى موضع القرار. كم من عبارة نعرفها منذ الطفولة ثم تأتي لحظة فنشعر كأننا سمعناها أول مرة؛ لم تتغير الآية، الذي تغير هو استعداد القلب. فالمشكلة ليست دائماً في ضعف الخطاب، بل في كثافة الحواجز التي نضعها بينه وبيننا.

وكذلك العقل هنا ليس الذكاء المجرد، ولا كثرة القدرة على الجدل، بل التعقل الذي يربط المقدمات بنتائجها ويمنع الإنسان من السير في طريق يعرف نهايته. وقد يكون المرء شديد الذكاء في أمور الدنيا ثم شديد الحماسة في أمر مصيره، لأنه يتخّر عقله لبناء حياته القصيرة ولم يسأله عن حياته الباقية. ما أغرب أن يستطيع الإنسان التخطيط لعشرين سنة قادمة، ويحسب احتمالات المال والعمل والسكن، ثم يعجز عن إدخال الموت في معادلة واحدة! وما أغرب أن يتعامل مع احتمال خسارة مالية ضئيلة باحتياط هائل، ثم يتعامل مع الآخرة وكأنها لا تستحق مراجعة!

سُورَةُ الْمُلْكِ | حِينَ يَسْقُطُ وَهُمْ الْأَمْتَلَاكُ

إن الآية تعيد الاعتبار إلى العقل في أصفى وظائفه: أن يقود إلى النجاة لا إلى الغرور. العقل الذي لا يجعل صاحبه أكثر قدرة على رؤية العواقب قد يكون آلة متطورة لخدمة الشهوة، لا نوراً يقود الإنسان. ولذلك فإن أهل النار لا يقولون: لو كنا أذكي، بل ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ﴾؛ أي لو أن الأدوات التي مُنحت لنا أدت وظيفتها الأخلاقية والمعرفية، لو أن السمع لم يكن مجرد استقبال، والعقل لم يكن مجرد صناعة أعدار.

وفي ترتيب السمع قبل العقل لطيفة منسجمة مع مقام الرسالة؛ فالوحي يُسمع أولاً ثم يُعقل، والإنسان لا يبدأ الهداية من فراغ، بل يتلقى خبراً من الله ثم يشغل عقله في فهمه وتديره وربط آياته ببعضها وبالوجود من حوله. وهكذا لا يجعل القرآن العقل خصماً للوحي، بل يعيب على من لم يعقله، كما لا يجعل السمع كافياً بلا فهم، بل يجمع الأداة والرسالة في طريق واحد. وهنا ينهار الصراع المصطنع بين الإيمان والعقل؛ المشكلة ليست أن هؤلاء عقلوا فكفروا، بل اعترفهم النهائي أنهم لو عقلوا لما صاروا إلى ما صاروا إليه.

ثم تأتي الخاتمة التي تقطع الطريق على كل تأويل مرجح: ﴿مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾. أي إن تعطيل السمع والعقل لم يكن خطأ ثقافياً عابراً، بل قراراً وجودياً له مصير. وهذا يجعل مسؤولية الوعي ثقيلة؛ أنت مسؤول عما تسمع، وعما تفهم، وعما تفعل بما فهمت. المعرفة

ليست زينة للعقل، بل أمانة، وكل حقيقة تبينت لك تصبح مطالبة لك بما يناسبها.

سُورَةُ الْمُلِكِ | حِينَ يَسْقُطُ وَهُمْ الْأَمْتَلَاكُ

الآية الحادية عشرة: حين لا يعود الاعتراف باباً للنجاة

﴿فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾

أخيراً تقع الكلمة التي كان يمكن أن تغير كل شيء لو قيلت في الوقت المناسب: ﴿فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ﴾. كم في هذه الآية من مأساة الزمن! الاعتراف نفسه الذي هو في الدنيا بداية التوبة يصبح في الآخرة مجرد شهادة على فوات الفرصة. ليست المشكلة إذن في كلمة «أخطأت»، بل في توقيتها؛ فكم من كلمة إذا قُلِّتْها اليوم أنقذتك، وإذا أخرتها إلى الغد ربما فقدت قوتها، وكم من حق إذا رددته الآن كان طاعة، فإذا انتظرت حتى لا تعود تملك شيئاً صار الندم بلا أثر.

الاعتراف بالذنب في الدنيا قوة لا ضعف؛ لأن النفس لا تحب أن ترى صورتها ناقصة، ولهذا تبني حول أخطائها طبقات من الإنكار والتبرير والإسقاط على الآخرين. والمذنب قد يحتاج إلى ذنب واحد، لكنه لكي لا يعترف به يصنع عشرة أخطاء أخرى: يكذب، ويبرر، ويظلم، ويشوه من واجهه، ويبعد تفسير القصة حتى يظهر ضحية. ولو امتلك شجاعة الاعتراف في البداية لاختصر كل هذا الخراب. إن التوبة ليست فقط عبادة بين العبد وربّه، بل نوع

سُورَةُ الْمُلْكِ | حِينَ يَسْقُطُ وَهُمْ الْأَمْتَلَاكِ

من استرداد العقل من قبضة الأناب؛ لأن أول خطوة فيها أن ترى الواقع كما هو، لا كما تريد صورتك الذاتية أن يكون.

ولفظ ﴿يَذَنِّبُهُمْ﴾ بالمفرد الجنسيّ يجمع ما قادهم إلى المصير، كأن الأعمال والمواقف المتعددة قد اجتمعت تحت حقيقة واحدة: مخالفة طريق الله بعد قيام الحجة. وفي هذا تحذير من أن تتعامل مع الذنوب كجزر منفصلة؛ فبعضها يقوي بعضاً، والقلب يتشكل بتكرار أفعاله، حتى يصبح الذنب عادة، ثم تصبح العادة هوية، ثم تصير الهوية منظومة تدافع عن نفسها. ولهذا كانت التوبة المبكرة نعمة؛ لأنها تقطع السلسلة قبل أن تكتمل.

ثم تأتي الكلمة الأخيرة كأنها إغلاق لباب المشهد: ﴿فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾، أي بعداً لهم. والبعد هنا هو جوهر المأساة؛ فكل معصية في حقيقتها مسافة يضعها الإنسان بين قلبه وبين الهدى، وكل إصرار يوسع هذه المسافة، حتى يأتي يوم يصبح فيه البعد مصيراً لا شعوراً عابراً. وما النار إلا نهاية كبرى لطريق بدأ بخطوات صغيرة ظن صاحبها أنها لا تعني شيئاً.

وهنا ينبغي أن نتوقف قبل أن نغادر هذا الفصل؛ لأن سورة الملك قد كشفت لنا موضع الخلل الحقيقي. في السماء لم نجد فطوراً، وفي نظام الخلق لم نجد تفاوتاً يقدح في إحكامه،

سُورَةُ الْمُلْكِ | حِينَ يَسْقُطُ وَهُمْ الْأَمْتَلَاكُ

لكن الفطور ظهر في الإنسان حين رفض أن يسمع ويعقل. الكون حوله منضبط، لكنه انفصل داخلياً عن ميزان الهدى؛ السماء تؤدي وظيفتها، والنجوم تؤدي وظيفتها، والأرض ستؤدي وظيفتها، والطير يؤدي وظيفته، أما الإنسان فقد مُنح الاختيار، وهنا جاءت خطورة مقامه: يستطيع أن ينسجم مع حقيقة العبودية فيصير اختياره جسراً إلى الله، ويستطيع أن يتمرد حتى يصبح الكائن الذي يسير في كون كله خاضع وهو وحده يظن أن حريته تعني الخروج من سلطان خالقه.

ولعل أكثر ما يخيف في هذا المشهد أن أهل النار لم يكتشفوا حقيقة جديدة تماماً؛ إنما فهموا متأخرين ما كان يمكن أن يفهموه مبكرين. الندم الأخروي هو في جانب منه وضوح كامل جاء بعدما انتهى زمن العمل. وهنا تتضح رحمة الدنيا رغم كل آلامها: ما دام المرء فيها فهو يعيش في دار يمكن فيها للمعرفة أن تتحول إلى فعل، وللندم أن يتحول إلى توبة، وللإعتراف أن يتحول إلى إصلاح، وللسمع أن يفتح طريقاً جديداً، وللعقل أن يراجع مساره. هذه هي قيمة اليوم الذي بين يديك؛ ليس لأنه مريح، بل لأنه قابل للتغيير.

ومن ثم فإن سؤال هذا الفصل ليس: كيف يكون حال أصحاب النار فقط؟ بل: هل أسمع الآن قبل أن أتمنى السماع؟ هل أعقل الآن قبل أن يصبح العقل اعترافاً متأخراً؟ هل أملك شجاعة أن أقول أخطأت قبل أن يصبح الاعتراف بلا ثمرة؟. هنا تتحول آيات الوعيد من

سُورَةُ الْمُلْكِ | حِينَ يَسْقُطُ وَهُمْ الْأَمْتَلَاكُ

مشهد بعيد إلى مرآة قريية، وبصبح الخوف منها رحمةً إذا دفع القلب إلى الحياة قبل أن يصل إلى الموضع الذي لا ينفع فيه إلا الحسرة.

ويعد أن عرضت السورة لنا مصير من عطّلوا السمع والعقل، ستنقل في الآيات التالية إلى الوجه الآخر تماماً: أناس لم يحتاجوا إلى أن يروا الله ليخشوه، بل آمنوا به في الغيب، وخافوه حيث لا يراهم الناس، فكان لهم مغفرة وأجر كبير. وهكذا يقيم القرآن ميزاناً دقيقاً بين نارٍ تشهق لمن عاش خارج مقام الخشية، وربّ يعلم السر وأخفى، ويعد الذين يخشونه بالغيب بمغفرة واسعة؛ لتبدأ رحلة أخرى داخل الإنسان، لا في سماء فوقه ولا في نار أمامه، بل في أعماق موضع لا يراه أحد: سر القلب.

الفصل الرابع

حين ينكشف سرُّ القلب أمام علم الله

الآية الثانية عشرة: الخشية التي لا تحتاج إلى عينٍ تراقبها

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾

بعد ذلك المشهد المزلزل الذي وقفنا فيه أمام قوم عرفوا الحقيقة حين لم يعد الاعتراف ينفع، تنقلنا السورة في حركة مدهشة من ضجيج النار إلى صمت القلب، ومن الاعتراف المتأخر إلى الخشية المبكرة، ومن أناسٍ لم ينتفعوا بما سمعوا إلى أناسٍ لم يحتاجوا إلى حضور الرقيب البشري كي يستقيموا؛ فنقول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ﴾، وكأنها تضع أمامنا معياراً دقيقاً جداً لصدق الإيمان: ماذا تكون حين لا يراك أحد؟ فما أيسر الطاعة حين تصفق لها العيون، وما أيسر الورع حين تترتب عليه سمعة حسنة، وما أيسر أن يبدو الإنسان مستقيماً في الضوء، لكن السؤال القرآني الحقيقي يبدأ حين تنطفئ مصابيح الجمهور، وتغلق الأبواب، ويسكت الهاتف، وتنقطع المراقبة، ويصبح بين الإنسان وبين شهوته حاجز واحد فقط: علمه بأن الله يراه.

سُورَةُ الْمُلْكِ | حِينَ يَسْقُطُ وَهُمْ الْأَمْتَلَاكِ

ولفظ ﴿يَخْشَوْنَ﴾ أعمق من خوفٍ عابرٍ يمر على القلب ثم يزول؛ فالخشية خوفٌ يتغذى من المعرفة، وكلها عظم المعلوم في القلب عظمت الخشية منه، ولهذا ليست الخشية اضطراباً نفسياً أمام مجهول، بل استشعار لجلال الله يثمر ضبطاً للنفس واستحياءً منه وإقبالاً عليه. قد يخاف الإنسان عقوبةً فيترك معصية، ولكن الخشية أرفع حين يتركها لأنه يستحي أن يراه مولاه في موضع لا يحبه، ويستشعر أن النعمة التي يعصيه بها هي نفسها هبة من الله، وأن العين التي ينظر بها إلى الحرام مخلوقة له، واليد التي تمتد إلى الباطل قائمة بإمداده، والعقل الذي يصنع به التبرير من عطاءه، فيصبح الذنب عندئذ ليس مجرد مخالفة أمر، بل سوء أدب مع ربٍّ لم ينقطع إحسانه لحظةً واحدة.

أما قوله: ﴿بِالْغَيْبِ﴾ فيفتح أبواباً من المعنى؛ فهم يخشونه وهم لا يرونه في الدنيا، ويخشونه في خلواتهم حين يغيبون عن أعين الناس، ويثبتون على طاعته أمام عالمٍ لا تزال كثير من حقائقه الغيبية وراء حجاب الحس. وهذا هو جوهر الامتحان؛ لأن الإيمان لو تحول كله إلى مشاهدة لما بقي للثقة بالخبر الإلهي ذلك المقام الذي يُمتحن فيه القلب. أنت لا ترى الجنة الآن، ولا ترى النار، ولا ترى الميزان، ولا ترى صحيفة عملك، لكن الوحي يخبرك، فتعيش على مقتضى الخبر وكأن الغيب يطل عليك من وراء الحجاب؛ ومن هنا تنشأ في

سُورَةُ الْمُلْكِ | حِينَ يَسْقُطُ وَهُمْ الْأَمْتَلَاكِ

المؤمن قدرة عجيبة على مقاومة ضغط اللحظة، لأن ما لا يراه حاضر في قلبه بقوة الإيمان، فلا يستطيع العاجل أن يبتلع الآجل، ولا اللذة العابرة أن تحو صورة الوقوف بين يدي الله.

وكم في ﴿رَبِّهِمْ﴾ من أنس داخل مقام الخشية؛ فالذي يخشونه هو ربهم، الذي خلقهم ورباهم وأمدهم وأصلح شأنهم، فلا تتحول الخشية إلى رعبٍ يقطع الصلة بالله، بل تبقى محاطةً بمعنى الربوبية. إن المؤمن لا يهرب من الله حين يخافه، بل يهرب إليه؛ لأنه لا يجد خارج رحمته مأمنًا، ولا خارج مغفرته نجاةً، ولا خارج قربه طمأنينة. وهذه مفارقة العبودية الجميلة التي لا يفهمها من يقيس علاقة العبد بربه على علاقات البشر: تخافه فتقترب، وتستحي منه فتناجيه، وتعتزف بين يديه بضعفك فتجد في الاعتراف قوة، وتبكي من ذنبك ثم تقوم من بكائك أكثر رجاءً.

ثم تأتي الثمرة: ﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾. بدأت بالمغفرة قبل الأجر، وكأن الطريق إلى النعيم يمر أولاً بتنظيف حمل الماضي؛ فالإنسان ليس فقط محتاجاً إلى ما يُعطى، بل إلى ما يُحصى، وليس فقره في نقص الحسنات وحدها، بل في أثقال الذنوب أيضاً. والمغفرة هنا ترجح قلب المؤمن من وهم الكمال؛ فالذين يخشون ربهم بالغيب ليسوا ملائكة لا يزلون، وإنما بشر قد يقصرون ثم يعودون، وقد يضعفون ثم يستغفرون، ولذلك جاءت المغفرة في صدر الوعد،

كأن الله يفتح للعبد باب الرجاء قبل أن يحدّثه عن الأجر الكبير.

سُورَةُ الْمُلْكِ | حِينَ يَسْقُطُ وَهُمْ الْأَمْتَلَاكُ

ولم يحدد النص هنا مقدار ذلك الأجر، بل وصفه بأنه ﴿كَبِيرٌ﴾، وحين يصف الله شيئاً بالكِبَر فلا ينبغي أن يضيق الإنسان المعنى بمقاييسه الصغيرة؛ فكبر العطاء على قدر كرم المعطي، لا على قدر خيال العبد. وهذا يربي القلب على أن الطاعة الخفية التي قد لا يراها أحد ليست صغيرة عند الله؛ ركعة في ليل لا يعلم بها الناس، دمعة خوف لا يراها مخلوق، معصية كانت ممكنة ثم تركتها لأنك استحييت من الله، مال أعطيته سراً، كلمة سوء ابتلعها ولم تقلها، نظرة صرفتها، نية أصلحتها، ضغينة قاومتها في داخلك، كل هذه الأعمال التي قد تمر بلا تصفيق بشري تقع تحت علم لا يغيب عنه شيء.

ولعل أجل ما تربيته هذه الآية في النفس هو الاستقلال الأخلاقي عن أعين الناس؛ فالإنسان إذا لم يتعلم أن يكون صالحاً في الغيب تحولت أخلاقه إلى مسرح. قد يقيم صورته أمام الناس بينما تنهار علاقته بالله في الداخل، وقد يخاف انكشاف الخطأ أكثر مما يخاف الخطأ نفسه، وقد يعتني بستر الذنب عن الخلق أكثر من عنايته بحجوز الذنب عند الخالق. أما الخشية بالغيب فتقلب الموازين: يصبح الأهم عنده ما هو عند الله، لا ما هو عند الناس، ويصبح السر ميداناً للحقيقة لا مستودعاً للوجه الآخر.

وهنا تتصل هذه الآية اتصالاً عجيباً بما قبلها؛ أولئك قالوا: ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ﴾، وهؤلاء خافوا ربهم بالغيب قبل أن تتحول الغيوب إلى مشاهدة. الأولون انتظروا حتى صار الخبر

سُورَةُ الْمُلِكِ | حِينَ يَسْقُطُ وَهُمْ الْأَمْتَلَاكِ

واقِعًا، والآخرون صدقوا الخبر وهو خبر، فنجوا. وبهذا يُفهم بعض سر الإيمان: أن تعطي كلام الله من قلبك من اليقين ما يجعلك تنصرف قبل أن ترى، لأنك تعرف أن الذي أخبرك لا يخطئ، وأن تأخر المشاهدة لا يعني تأخر الحقيقة.

الآية الثالثة عشرة: لا سرَّ في ملك الله

﴿وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾

من الحديث عن الخشية بالغيب تنتقل السورة مباشرةً إلى أساس تلك الخشية: أن الله يعلم، وأن علمه ليس مقصوراً على ما يظهر من الإنسان، بل يبلغ ما وراء العبارة نفسها إلى المنبع الذي خرجت منه: ﴿وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ﴾. في ميزان الناس هناك فرق هائل بين السر والجهر؛ كلمة تقولها أمام الملاء قد تُسمع وتُسجل وتترتب عليها نتائج، أما كلمة تهمس بها في غرفة مغلقة فربما تشعر أنها خرجت من دائرة الوجود العام، لكن هذه الثنائية تنهار أمام علم الله؛ فالخفص والرفع، والليل والنهار، والباب المفتوح والباب المغلق، كلها فروق تخص المخلوق الذي تحده المسافة والحاسة، أما الله سبحانه فلا يخفى عليه سر ولا علانية.

ولعل التعبير لا يقول فقط إن الله يعلم الأقوال، بل يذهب أبعد: ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾؛ أي بما تضمرة الصدور وتشتمل عليه من نيات وخفايا. وهنا ينتقل الإنسان من

سُورَةُ الْمُلْكِ | حِينَ يَسْقُطُ وَهُمْ الْأَمْتَلَاكِ

مراقبة اللسان إلى مراقبة المنبع الذي يصنع اللسان؛ فقد يستطيع أن يقول كلاماً جميلاً بنية فاسدة، أو يصمت صمتاً يبدو حكمةً وهو يخفي كبراً، أو يتصدق فيظهر الفعل صالحاً ويكون القلب طالباً لمنزلة عند الناس، أو يعتذر بلفظ رقيق ويظل داخله مصراً على احتقار من أمامه. البشر يرون الصورة، أما الله فيعلم ما وراءها، ولذلك فإن إصلاح الحياة الإيمانية لا يمكن أن يقتصر على تجميل السطح.

وفي هذا المعنى رحمة وعدل معاً؛ عدل لأن المظاهر لا تخدع الله، فلا يستطيع ظالم أن يرتدي لغة البراءة فيتحول عند ربه بريئاً، ولا منافق أن يتقن الدور حتى يستر حقيقة قلبه، ولا متصنع أن يشتري بكلمات الصلاح منزلةً لا يستحقها عند الله. ورحمة لأن الناس قد يظلمون النيات أيضاً، فيسيئون فهم صادق، ويتهمون بريئاً، ويقرأون فعلاً حسناً قراءةً قاسية، لكن العبد يجد عزاءه في أن الله يعلم ما في صدره؛ فإذا ضاق بك سوء فهم الخلق ولم تستطع أن تفتح قلبك أمامهم ليقراءوه، فهناك من يعلم السر قبل أن يصير كلاماً، ويعلم القصد قبل أن يلبس صورة الفعل.

وهنا يكتشف الإنسان أن أخطر شيء في حياته ليس ما يعرفه الناس عنه، بل ما يعلمه الله منه. وهذه الجملة إذا دخلت القلب صادقةً تغير كثيراً من سلوكك؛ لأننا ننفق جزءاً هائلاً من طاقتنا في إدارة صورتنا الخارجية: ماذا سيقولون؟ كيف سيقراءون هذا؟ هل عرفوا؟ هل

سُورَةُ الْمُلْكِ | حِينَ يَسْقُطُ وَهُمْ الْأَمْتَلَاكِ

أحسنوا الظن؟ هل ساءت سمعتي؟ وكل ذلك له قدر من الاعتبار في حياة اجتماعية طبيعية، لكن الكارثة أن تصبح صورتك عند الناس أهم من حقيقتك عند الله. قد ينهار إنسان لأن الناس اكتشفوا ذنبه، لا لأن الذنب وقع، وكأن المصيبة عنده انكشافه لا فعله؛ وقد يطمئن آخر إلى خطيئة طالما بقيت مستورة، وكأن ستر الله عليها ترخيص بالاستمرار لا فرصة للتوبة.

إِنْ ﴿عَلِمَ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ تصنع المؤمن الحقيقي في الخفاء؛ فهي تنقل الرقابة من الخارج إلى الداخل، وحين يستقر هذا المعنى لا يحتاج الإنسان في كل موضع إلى عين بشرية تمنعه، لأن هناك عين القلب المفتوحة على علم الله. وهذه هي الحرية العجيبة التي يولدها الإيمان: يحركك من عبودية الشرطة الخارجية حين يربي فيك الضمير الذي يعرف أنه في حضرة العلم الإلهي دائماً. فالإنسان الذي لا يمتنع عن الشر إلا إذا خاف أن يراه الناس لم يصنع بعد أخلاقاً، وإنما صنع حساباً للمخاطر؛ أما الذي يترك الشر ولو ضمن أن البشر لن يعرفوا فهو الذي بدأ يذوق معنى الخشية بالغيب.

ومع ذلك، فهذه الآية ليست دعوة إلى مرض الوسوسة ولا إلى تفتيش الإنسان الدائم في كل خاطر عابر حتى يحيل باطنه إلى سجن؛ فالله يعلم ضعف البشر كما يعلم أسرارهم، ويحاسب على ما استقر من قصد واختيار وفق ما شرعه، لا على ما يمر على النفس بغير

سُورَةُ الْمُلْكِ | حِينَ يَسْقُطُ وَهُمْ الْأَمْتَلَاكِ

إرادة ثم تدفعه. الغاية من المراقبة أن تُنضج القلب، لا أن تحطمه؛ أن تجعله أصدق، لا مذعوراً من مجرد خواطره؛ أن يتعلم تنظيف دوافعه كلما اكتشف فيها شائبةً، لا أن يدعي لنفسه طهارةً كاملة لا يملكها بشر.

وهنا يبرز سؤال بالغ الأهمية: إذا كان الله يعلم السر والجمهور، فلماذا يسر الإنسان أصلاً بالسر؟ إنه لا يستتر به عن الله، بل عن الخلق؛ وهذا يكشف أن كثيراً من معاصينا تستمد قوتها من تضخم الناس في قلوبنا. نخاف فضيحتهم وننسى نظر الله، نستحي من أن يعلموا ولا نستحي من أن يعلم، مع أن علم الناس محدود وقد يخطئون وقد ينسون، وعلم الله كامل لا يخفى عليه شيء. إنها مفارقة من مفارقات الغفلة: يعظم في قلبك من لا يملك مصيرك، ويصغر في لحظة الهوى استحضار من بيده الملك كله.

الآية الرابعة عشرة: سَوَّالٌ يَهْدِمُ وَهُمْ الْاِخْتِفَاءُ مِنْ اَسَاسِهِ

﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾

ثم تأتي الآية في صورة سؤال يكاد الجواب يكون مغروساً في صياغته: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾. كيف يمكن أن نتصور خلقاً محيطاً بتفاصيل وجودك ثم تنفي عن الخالق علماً بما خلق؟ كيف يكون الذي أوجد القلب لا يعلم ما ينطوي عليه القلب، والذي أعطاك القدرة

سُورَةُ الْمُلْكِ | حِينَ يَسْقُطُ وَهُمْ الْأَمْتَلَاكِ

على الكلام لا يعلم ما تخفيه الكلمات، والذي صاغ الجهاز العصبي وتعقيداته والوجدان وخفاياه لا يعلم ما يدور في نفسك؟ إن السؤال لا يقدم برهاناً خارجياً فقط، بل يعيدك إلى بداهة عميقة: الخالق أعلم بخلقه.

وهذه الآية من أعظم ما يبدد الوحدة الوجودية التي قد يشعر بها الإنسان؛ فقد تمر بك مشاعر لا تستطيع شرحها، وتدخل فيك مخاوف ورغبات وندوب قد تعجز اللغة عن حملها، وربما حاولت أن تشرح نفسك لأقرب الناس فلم تصل إليهم إلا نسخة ناقصة منك، ثم تأتيك هذه الآية لتقول: الذي خلقك لا يحتاج إلى شرح طويل كي يفهمك. هو يعلم موضع الألم الذي لا تستطيع تسميته، ويعلم معنى الدمع قبل أن يسيل، ويعلم الخيرة قبل أن تصبح سؤالاً، ويعلم تلك المعركة الخفية التي تخوضها بينما يظنك الناس ساكناً.

وما أجمل أن تُختم الآية باسمين: ﴿اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾. فالعلم هنا ليس علماً بارداً مجرداً، بل اقترن باللفظ والخبرة. واللطيف من أسمائه سبحانه، الدال على لطفه بعباده وإحاطة علمه بدقائق الأمور على ما يليق بجلاله، والخبير الذي لا تخفى عليه بواطن الأشياء وعواقبها. وحين يجتمع الاسمان بعد الحديث عن أسرار الصدور، يشعر المؤمن أن انكشافه الكامل أمام الله ليس فضيحة لمن رجع إليه، بل باب نجاة؛ لأن الذي يعلم كسره هو اللطيف، والذي يعلم تعقيدات طريقته هو الخبير.

سُورَةُ الْمُلْكِ | حِينَ يَسْقُطُ وَهُمْ الْأَمْتَلَاكُ

ولطف الله قد يأتي في صور لا نغيزها في لحظتها؛ قد يدير لك شيئاً من وراء علمك، ويصرف عنك أمراً كنت تظنه خيراً، ويؤخر شيئاً استعجلته، ويهيئ قلباً أو مكاناً أو فرصة من طريق لم تفكر فيه، ثم تلتفت بعد زمن فترى خيوطاً دقيقةً كانت تنسج حياتك وأنت لا تراها. ولا ينبغي أن نحول كل حادثة إلى دعوى جازمة بأننا أدركنا مراد الله التفصيلي منها، فكم من حكمة تبقى مستورة، لكن اسم اللطيف يربينا على الثقة بأن خفاء وجه التدبير لا يعني خلوه من اللطف.

أما الخبير فيعيدنا إلى معنى آخر: الله لا يرى ظواهر أفعالنا فقط، بل يعلم ما وراءها وما ستؤول إليه، بينما نحن كثيراً ما نزيد الشيء لأننا نرى أول صفحته ولا نرى آخرها. ربما تعلق النفس بأمر لو حصل لكان باب شقاءها، وربما فرت من أمر كان فيه نضجها، ولهذا يحتاج العبد إلى أن يتعامل مع ربه لا بوصفه مجرد قادر على تحقيق رغباته، بل بوصفه خبيراً بما ينفعه على الحقيقة. ومن أرقى مقامات الدعاء أن تطلب بصدق، ثم تترك لله مساحة الحكمة كاملة، فلا تجعل استجابة الدعاء محصورة في الصورة التي تخيلتها.

إن قوله ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾ يصلح أيضاً دواءً لعلاقة الإنسان بنفسه؛ فنحن أحياناً نحكم أنفسنا بجهل كما نحكم غيرنا بجهل. قد ترى في ذاتك ضعفاً فتظن أنه كل حقيقتك، أو ترى فشلاً فتستخلص منه حكماً شاملاً على قيمتك، أو تمر بمرحلة مظلمة فتتصور أن

سُورَةُ الْمُلْكِ | حِينَ يَسْقُطُ وَهُمْ الْأَمْتَلَاكِ

مستقبلك كله مظلم، بينما الخالق يعلمك معرفةً أوسع من معرفتك بنفسك، ويعلم فيك مواطن الاستعداد التي لم تظهر بعد، ويعلم أين يمكن أن تصل إذا صدقت معه. وهذا لا يبرر التهاون أو تزكية النفس، لكنه يحررها من الأحكام النهائية المتعجلة التي تصنعها من لحظة ضعف.

ثم ما أوقع هذه الآية في سياق سورة الملك؛ لقد بدأنا بـ ﴿يَدِهِ الْمُلْكُ﴾، وها نحن نصل إلى أن هذا الملك ليس ملكاً بلا علم، ولا قدرةً بلا خبرة، ولا تديراً من بعيد، بل سلطانٌ محيط وعلمٌ محيط. الله يملكك ويعلمك، وما أشد حاجة القلب إلى الجمع بين المعنيين؛ فإن تصور الملك بلا العلم أورث صورة سلطان بعيد، وتصور العلم بلا الملك أورث معرفةً بلا قدرة، أما القرآن فيجمع لك الأمرين: الذي يعرف شرك هو نفسه الذي بيده الملك، والذي يسمع دعاءك هو نفسه القادر على إنفاذ ما يشاء، والذي يعلم ضعفك لا يعجزه إصلاحك.

الآية الخامسة عشرة: امشِ في الأرض، ولكن لا تنسَ لمن الأرض

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾

بعد أن أخذتنا السورة إلى سر القلب وأغلقت أمامه كل وهم بالاختفاء، تعيدنا إلى الأرض التي نمشي عليها كل يوم، ولكنها لا تعيدنا إليها بالطريقة القديمة؛ فالإنسان قبل هذه الآية

سُورَةُ الْمُلْكِ | حِينَ يَسْقُطُ وَهُمْ الْأَمْتَلَاكِ

كان يمشي فوق الأرض كما لو أن ثباتها أمر بديهي، وكأن الطرق حق طبيعي، وكأن قابلية العالم للسكن والحركة والعمل جزء من ملكيته الخاصة، ثم يقول القرآن: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا﴾. لم تكن الأرض ذلولاً بذاتها، ولم تخلق نفسها ملائمةً لك، بل جعلها الله كذلك؛ وهذه الكلمة وحدها ترد النعمة إلى مصدرها وتوقظ الحس من تخدير الاعتياد.

و﴿ذُلُولًا﴾ صورة آسرة؛ كأن هذه الأرض الهائلة بما فيها من جبال وصحارى وبحار ومسافات قد ذللها الله للإنسان من وجوه، فأمكنه أن يسكن ويزرع ويسافر ويستخرج ويعمر ويتخذ الطرق، مع أنها في حقيقتها ليست ضعيفة أمامه؛ فما أهون الإنسان إذا اضطرب جزء منها، وما أسرع ما يتحول غروره أمام زلزال أو انهيار أو عاصفة إلى رجفة. ولهذا فإن الذلول لا تعني أن الأرض صارت ملكاً خاضعاً لقوة الإنسان الذاتية، بل إنها مذلة له بتسخير الله، والفرق بين التصورين هو الفرق بين الشكر والغرور.

ثم لا تقول الآية: اجلسوا على هذه الأرض وانتظروا الرزق، بل تقول: ﴿فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا﴾، وهذا من أجمل مواضع التوازن بين الإيمان والعمل؛ فالذي يوقن بأن الرزق من الله لا يتحول إلى كائن ساكن، بل يمشي. التوكل الذي يصنع الكسل لم يتعلم بعد من القرآن معنى التوكل؛ لأن رب الرزق نفسه هو الذي قال: فامشوا. تحرك، وابحث، واسلك

سُورَةُ الْمُلْكِ | حِينَ يَسْقُطُ وَهُمْ الْأَمْتَلَاكِ

الطريق، واضرب في الأرض، وتعلم، واعمل، وابن، واتخذ السبب، ولكن انتبه إلى العبارة التالية حتى لا يتحول المشي إلى عبادة لنفسك: ﴿وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ﴾.

إنك تمشي، لكن الرزق رزقه؛ تعمل، لكن الثمرة ليست مستقلة عن عطائه؛ تزرع، لكنك لا تصنع سر الحياة في البذرة؛ تفتح متجرًا، لكنك لا تملك قلوب الناس ولا تقلبات الأسواق؛ نتعلم مهنة، لكنك لا تضمن صحة تقيك قادرًا على ممارستها؛ تتخذ سببًا، لكنك لا تخلق العلاقة بين السبب والنتيجة. وهكذا تحرر الآية الإنسان من وهمين متقابلين: وهم من يقول إن الرزق يأتي بلا سعي، وهم من يظن أن السعي هو الذي خلق الرزق. الأول أهمل الأمر بالمشي، والثاني نسي إضافة الرزق إلى الله.

وهذه الإضافة: ﴿مِنْ رِزْقِهِ﴾ ينبغي أن تغير أخلاق الاقتصاد في قلب المؤمن؛ فإذا كان المال رزق الله، فلا يصح أن تطلبه بمعصيته، ولا أن تمنعه حقًا أوجبه الله فيه، ولا أن تتكبر به على عباد الله، ولا أن تتوهم أن زيادة نصيبك شهادة على زيادة قيمتك الإنسانية. المال رزق لا مقياس كرامة، والفقير قد يكون عند الله أرفع من غني، والغني قد يكون في امتحان أشد مما يشعر. إن الخلل يبدأ حين تنتقل النعمة من اليد إلى الهوية، فيصبح الإنسان «ما يملك»، فإذا نقص ماله شعر أنه نقص هو، وإذا زاد شعر أنه ارتفع؛ بينما القرآن يريه على أن المال شيء أعطي له، لا شيء يحدد قيمته.

سُورَةُ الْمُلْكِ | حِينَ يَسْقُطُ وَهُمْ الْأَمْتَلَاكِ

وفي الأمر ﴿فَأَمْشُوا﴾ جمال آخر؛ فالحياة المؤمنة ليست عزلة عن العالم، بل حضور فيه. أنت مأمور أن تمشي في مناكب الأرض، أي أن تتعامل مع الواقع، وتتعلم جغرافيته، وتكتشف سننه، وتطلب منافعك المباحة، وتسهم في عمارتها، لكن دون أن تستوطنها بقلبك كأنها النهاية. وهنا تأتي الضربة الأخيرة في الآية: ﴿وَالْيَهُ النَّشُورُ﴾. يا لها من خاتمة! مشي في الأرض، وأكل من الرزق، ثم فجأة يفتح الأفق على القيامة. كأن القرآن لا يريد لك أن تنسى المصير وأنت في السوق، ولا الآخرة وأنت تكدح، ولا الله وأنت تجمع أسباب الحياة.

﴿وَالْيَهُ النَّشُورُ﴾ تجعل كل طريق في الأرض ذا نهاية فوق الأرض؛ فكم من إنسان يمشي في مناكبها وكأن الأرض آخر الوطن، يبني ويخطط ويخترن ويخاصم ويظلم ويجمع، ثم لا يدخل في حساباته أنه سيُخرج منها يوماً ويُنشر إلى ربه. والقرآن لا يطلب منك أن تترك البناء لأنك ستموت، بل أن تبني بطريقة تستطيع أن تلقى الله بها؛ لا يطلب منك أن تترك الرزق، بل أن تكسبه بما لا تخجل منه يوم النشور؛ لا يطلب منك أن تكف عن المشي، بل أن تعرف جهة الرحلة الأخيرة.

وفي هذه الآية وحدها تجلّي صورة الإنسان المسلم في العالم: عاملٌ غير عابد للعمل، ساعٍ غير متوكل على السعي، مستمتعٌ بالرزق غير مستعبد له، ساكنٌ الأرض بقدمه ومسافرٌ عنها بقلبه. وهذا التوازن عسير على النفس؛ لأنها إما أن تنغمس في الدنيا حتى تنسى المصير، أو

سُورَةُ الْمُلْكِ | حِينَ يَسْقُطُ وَهُمْ الْأَمْتَلَاكُ

تتصور الزهد انسحاباً من مسؤوليات الحياة، بينما القرآن يبني إنساناً أقوى: يمشي في الأرض وقلبه معلق بالسماء، ويأكل من الرزق ويعرف صاحبه، وينجح من غير أن يعبد نجاحه، ويخسر من غير أن تنهار عقيدته، لأن رزقه لم يكن يوماً خارج الملك.

ولعل من ألطف الروابط أن تأتي هذه الآية بعد قوله: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾؛ فالذي يعلمك من الداخل هو نفسه الذي ذلل لك العالم من الخارج. أنت محاط بلطفه من الجهتين: يعلم ما في صدرك، ويهيئ تحت قدمك أرضاً تمشي عليها. وفي كل لحظة من حياتك يلتقي الباطن والظاهر تحت ربوبية واحدة؛ قلبك في علمه، وأرضك في تسخيره، ورزقك في عطائه، ومصيرك إليه.

لكن السورة لن تدع الإنسان يستغرق في نعمة الأرض حتى يعاوده وهم الأمان؛ فما إن قالت له ﴿الْأَرْضَ ذَلُولًا﴾ حتى ستسأله في الآيات التالية: أأمنت أن تتقلب هذه الأرض التي تمشي عليها إلى موضع خوف؟ أأمنت أن يخسف بكم جانبها؟ أأنتم من في السماء أن يرسل عليكم حاصباً؟ وكأن القرآن يعتمد أن يضع النعمة بجوار إمكان سلبها، حتى لا يتحول الامتنان إلى غفلة. فالأرض ذلول ما دام الله قد ذللها، والرزق جارٍ ما دام الله قد أذن به، والأمن قائم ما دام الله قد أبقاه، ولذلك فإن المؤمن لا يستند إلى النعمة وحدها، بل إلى المنعم.

سُورَةُ الْمُلْكِ | حِينَ يَسْقُطُ وَهُمْ الْأَمْتَلَاكِ

لقد قادتنا هذه الآيات من خشية الغيب إلى علم السر، ومن علم السر إلى الخالق اللطيف الخبير، ومن معرفة الخالق إلى الأرض والرزق والنشور، وكأن السورة تنزل بالعقيدة من أعلى مقاماتها إلى تفاصيل اليوم العادي لتقول للإنسان: لا تظن أن الإيمان حقيقة تسكن المسجد وحده، فهو معك حين تهمس، وحين تنوي، وحين تمشي، وحين تعمل، وحين تأكل، وحين تخطط لغدك. وفي كل هذه المواضع هناك سؤال واحد يتكرر بأشكال متعددة: هل تعيش في ملك الله وأنت تعرف أنك في ملكه، أم تعيش فيه كما لو أنك نسيت المالك؟ ومن هنا سننتقل إلى أحد أشد مقاطع السورة إيقاظًا للغرور البشري؛ فالأرض التي قيل لك قبل قليل إنها ذلول قد تتحول في لحظة إلى شهادة على ضعفك، والسماء التي رفعت إليها عينك قبل قليل قد يأتي منها ما لا تستطيع دفعه، وستبدأ السورة في ضرب وهم الأمن المستقل عن الله، ذلك الوهم الذي لا يشعر الإنسان بخطورته إلا حين يهتز تحت قدميه الشيء الذي كان يظنه لا يهتز.

حين يهتز الأمن تحت أقدام الإنسان

الآية السادسة عشرة: الأرض التي تطمئن إليها ليست ضماناً بذاتها

﴿أَأَمِنْتُمْ مَّنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ﴾

بعد أن قال الله سبحانه: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا﴾، وكان في هذه الكلمة من الأُنس ما يجعل الإنسان يشعر بأن الأرض مهيأة له، قابلة لمشييه وسكاه وحرثه وبنائه، جاءت الآية التالية مباشرةً لتمنع النعمة من أن تتحول في الوجدان إلى غرور، ولتمنع الاستقرار من أن يتحول إلى اعتقاد خفي بأن الاستقرار حق ذاتي للأشياء لا مِنَّة متجددة من الله؛ فقال سبحانه: ﴿أَأَمِنْتُمْ مَّنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ﴾. وما أشد هذا الانتقال من «ذلولا» إلى «تمور»؛ الأرض هي الأرض، لكن حالها ليس قائماً بذاتها، وإنما بتقدير الله، فما كان منذ لحظات موضع مشيك قد يصبح موضع اضطرابك، وما حمل بيوتك ومدنك وأسواقك وأحلامك قد يتحول في لحظة إلى شيء لا تستطيع قدماك أن

سُورَةُ الْمُلْكِ | حِينَ يَسْقُطُ وَهُمْ الْأَمْتَلَاكِ

ثبتنا عليه. وهنا تصنع السورة في القلب ما يشبه إعادة تعريف الأمن نفسه: الأمن ليس أن تكون الأشياء مستقرةً حولك فقط، بل أن تعرف من الذي أبقاها مستقرة.

ولفظ ﴿أَئْمِنْتُمْ﴾ لا ينهى عن الشعور الطبيعي بالطمأنينة، ولا يدعو المؤمن إلى أن يعيش مرتجفًا من كل شيء، وإنما يهدم ذلك الأمن المتكبر الذي ينشأ حين ينسى الإنسان أن النعم قابلة للسلب، وأن الذي جعل الأرض قرارًا قادر على أن يذهب بصورة القرار متى شاء؛ فالآفة ليست أن تسكن بيتًا مطمئنًا، بل أن يسكن في قلبك وهم أنك في مأمن مستقل عن الله، وليست المشكلة أن تخطط للمستقبل، بل أن تتحول الخطة عندك إلى وثيقة ضمان، وليست المشكلة أن تعتمد على أسباب الأمان، بل أن تنسى أن السبب نفسه لا يقوم إلا بإذن مسبب الأسباب. إن المؤمن يبني الجدار، ويغلق الباب، ويتخذ الاحتياط، لكنه لا يعبد الجدار ولا الباب ولا الاحتياط؛ لأن اليقين قد علمه أن الأشياء لا تملك لنفسها خاصية الثبات فضلًا عن أن تمنحه هو ثباتًا مستقلًا.

وفي قوله: ﴿أَنْ يَخْسِفَ بِكُرِّ الْأَرْضِ﴾ صورة تهدم شعور السيادة البشرية دفعةً واحدة؛ فالإنسان الذي يشق الجبال، ويفتح الأنفاق، ويقيم الأبراج، ويضع الخرائط، ويتقن الحسابات الهندسية، يبقى في حقيقته كائنًا يقف على سطح رقيق من الأمان الموهوب، ولا يحتاج حتى يسقط غروره إلى انقلاب كوني شامل، بل إلى أن تتحرك رقعة صغيرة مما تحته

سُورَةُ الْمُلْكِ | حِينَ يَسْقُطُ وَهُمْ الْأَمْتَلَاكِ

على نحو لم يأذن له بالسيطرة عليه. وهذه الحقيقة لا تحقر العلم ولا العمران، فالقرآن نفسه أمر بالمشي في مناكب الأرض، وإنما يعيد العلم إلى موضعه: أداة نافعة ضمن ملك الله، لا سلطاناً بديلاً عنه. وكلها تقدم الإنسان في تسخير السنن ازداد احتياجه إلى التواضع، لأن معرفته بكيفية الظاهرة لا تعني ملكه لوجودها، وفهمه لبعض قوانينها لا يعني أنه أصبح رباً عليها.

ثم تأتي الصورة: ﴿فَإِذَا هِيَ تَمُورُ﴾، والمور هو الاضطراب والحركة الشديدة، وكأن السورة لا تكتفي بأن تخبرك بالخسف، بل تجعلك ترى الأرض نفسها وقد فقدت الصفة التي كنت تبني عليها كل أمانك. ونحن نعيش على أشياء لا نلاحظها لأنها ثابتة: ثبات الأرض، انتظام الجاذبية، تتابع الليل والنهار، عمل الجسد في صمت، نبض القلب، دخول الهواء وخروجه، وصول الماء، وكل هذه النعم لا نشعر بها غالباً لأن أعظم النعم أحياناً هي تلك التي لا تضطر إلى طلبها كل صباح. فإذا اختل واحد منها فقط اكتشفنا أننا كنا نسبح في بحر من العطاء ولم نكن نراه.

ولعل من أشد آثار هذه الآية في النفس أن تجعلها تتعامل مع العافية اليومية بوصفها حدثاً يستحق الشكر، لا فراغاً بين الكوارث؛ لأن الإنسان لا يعرف قيمة الأرض المستقرة إلا حين تهتز، ولا قيمة الجسد الصامت إلا حين يصرخ عضو فيه، ولا قيمة البيت الآمن إلا

سُورَةُ الْمُلْكِ | حِينَ يَسْقُطُ وَهُمْ الْأَمْتَلَاكِ

حين يصبح الأمن خبراً من الماضي، ولا قيمة الماء الجاري إلا حين ينقطع. لكن القرآن يريد أن يختصر عليك الطريق؛ لا تنتظر زوال النعمة حتى تراها، بل تعلم رؤيتها وهي باقية. وهذه هي إحدى وظائف الذكر: أن يعيد إلى النعمة مرئيتها قبل أن يكشفها الفقد.

والآية كذلك تحرر الإنسان من الغرور الحضاري الذي قد ينشأ حين نتقدم أدوات السيطرة على الطبيعة؛ فهما بلغت الحضارة من المعرفة فإنها لا تستطيع أن تلغي افتقارها إلى القانون الذي لم تخلقه، ولا إلى المادة التي لم توجد لها، ولا إلى الحياة التي لا تعرف كيف ابتدأت بأمر الله، ولا إلى كون يظل قابلاً للسكن بقدر لا يصنعه الإنسان بنفسه. قد يتعلم كيف يتعامل مع الزلزال، لكنه لا يمنح الأرض أصل ثباتها، وقد يبنى أنظمة الإنذار، لكنه لا يمنح ثانية إضافية من العمر إذا جاء الأجل. وهنا لا يصغر العلم، بل يصغر الغرور المصاحب له؛ وهذا فرق جوهري بين الإيمان الذي يحتقر المعرفة والإيمان الذي يضعها في سياق العبودية.

وإذا عاد القلب إلى صدر السورة سمع الصدى نفسه: ﴿يَدِهِ الْمُلْكُ﴾. الأرض التي تمور لم تخرج من الملك، والأرض التي تستقر لم تخرج من الملك؛ وفي الحالتين يظل العبد عبداً. ولهذا لا ينبغي للإنسان أن يقرأ هذه الآية خوفاً مجرداً من خسف محتمل، بل أن يقرأها سؤالاً عن موضع قلبه: أين أضع أمني الحقيقي؟ في البيت؟ في الوظيفة؟ في الدولة؟ في

سُورَةُ الْمُلْكِ | حِينَ يَسْقُطُ وَهُمْ الْأَمْتَلَاكِ

العائلة؟ في الصحة؟ في رصيد المال؟ كل هذه أسباب وستر ونعم عظيمة، لكنها ليست الموضوع الأخير الذي ينبغي للقلب أن يركن إليه. فإذا ركن إليها وحدها جعل من المتغير ثابتاً ومن المخلوق ملاذاً نهائياً، ثم جاءت الحياة لتعلمه بالقسوة ما كان يمكن للآية أن تعلمه برفق.

الآية السابعة عشرة: السماء التي ترى منها المطر قد يأتيك منها ما يخيفك

﴿أَمْ أَمِنْتُمْ مِّنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرٍ﴾

تنتقل السورة من الخطر الذي يأتي من تحت الأقدام إلى الخطر الذي يأتي من فوق الرؤوس؛ وكأنها تحاصر وهم الاستقلال من جهاته كلها. تحتك أرض لا تملك ثباتها، وفوقك سماء لا تملك ما ينزل منها، وبينهما تقف أنت محاطاً بالافتقار. ﴿أَمْ أَمِنْتُمْ مِّنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾؛ والحاصب ما يرمى به من حصباء ونحوها في ريح عاصفة، فيتحول الفضاء الذي ألف الإنسان أن يأتيه منه المطر والضوء والنسيم إلى مصدر عذاب إن شاء الله. وهذه الثنائية بين النعمة والنقمة تجعل المؤمن يدرك أن الأشياء ليست خيراً بذاتها منفصلة عن أمر الله، وإنما خيرها وشرها داخل تديره؛ الماء الذي يحيي قد يغرق، والريح التي تحمل السحاب قد تعصف، والأرض التي تحمل قد تخسف، والمال الذي ينفع قد

سُورَةُ الْمُلْكِ | حِينَ يَسْقُطُ وَهُمْ الْأَمْتَلَاكِ

يطغي، والصحة التي تعين قد تفتن، فليست النجاة في امتلاك الأشياء، بل في حسن العلاقة مع رب الأشياء.

وهنا يعود السؤال نفسه: ﴿أَمْ أَمِنتُمْ؟﴾، وكأن تكرار الاستفهام يريد أن يقتلع طبقات الأمان الكاذب طبقةً بعد أخرى. الإنسان لا يقول في العادة بلسانه: أنا آمن من الله، لكنه قد يعيش كما لو كان كذلك؛ يخطط دون أن يخطر بباله أنه محتاج إلى حفظ الله، ويعصي دون أن يرتجف في داخله معنى الحساب، ويؤجل التوبة لأن الأيام في شعوره مضمونة، ويتعامل مع النعمة كأنها عقد دائم لا هبة قابلة للتغيير. وهذا هو الأمن المذموم: أن تتحول سعة حلم الله عليك إلى اعتقاد بأن لا شيء سيقع، وأن تتحول مهلة التوبة إلى شعور بأن الباب سيظل مفتوحاً متى شئت أنت، لا ما دمت حياً بأجل لا تعرفه.

ثم يأتي قوله: ﴿فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرٍ﴾، وفيه تهديد بأن ما يُسمع الآن خبراً يمكن أن يصبح مشاهدة، وحين يصبح الإنذار واقعاً تتغير طبيعة المعرفة. الناس جميعاً يعرفون أن الموت حق، لكن معرفة من حضره الموت ليست كمعرفة من يسمع عنه؛ ويعرفون أن النعم تزول، لكن من فقد نعمة فجأةً يعرف معنى الزوال بطريقة أخرى. والسورة تريد أن تغنيك بمعرفة الوحي عن قسوة المعرفة بعد الوقوع؛ أن تصدق النذير قبل أن يصير أمامك حدثاً لا تستطيع رده.

سُورَةُ الْمُلْكِ | حِينَ يَسْقُطُ وَهُمْ الْأَمْتِلَاكِ

وما أرحم الإنذار إذا قرئ في وقته؛ فالذي ينذر ابنه من نار أمامه لا يكرهه، والذي يحذر مسافراً من حفرة لا يتمنى سقوطه، بل يريد نجاته. وكذلك آيات الوعيد، ليست خصماً من الرحمة، وإنما من تجليات الرحمة بالإنسان وهو لا يزال قادراً على تغيير مسيره. والمشكلة أن النفس تحب خطباً يطمئنها دائماً، وتضيق بما يوقظها، مع أن بعض الطمأنينة خيانة، وبعض الخوف رحمة؛ فلو أن طبيباً أخفى عن مريضه حقيقة مرضٍ يمكن علاجه بحجة ألا يقلقه لكان قد خانته باسم اللطف، والقرآن لا يفعل ذلك بالإنسان: يخبره بما أمامه لأنه يريد أن ينجو.

الآية الثامنة عشرة: التاريخ ليس حكايةً عن الآخرين بل مرآة لمن يأتي بعدهم

﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾

ثم تفتح السورة نافذة التاريخ: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾. وما أسرع ما يتحول الإنسان أمام التاريخ إلى مشاهد؛ يقرأ أخبار الأمم كأنها قصص انتهى زمانها، ويظن أن المسافة الزمنية بينه وبينهم تعني أن السنن التي جرت عليهم قد تقاعدت، لكن القرآن لا يروي التاريخ ليشتع الفضول، وإنما ليجعل الماضي مرآة للحاضر. الذين من قبل لم يكونوا مخلوقات من طبيعة أخرى؛ أحبا الحياة، وخافوا الفقد، وبنوا، وتاجروا، وفرحوا بقوتهم، واستبعدوا

سُورَةُ الْمُلْكِ | حِينَ يَسْقُطُ وَهُمْ الْأَمْتَلَاكِ

سقوط ما بدا راسخاً، ثم مرت بهم السنن التي تمر بكل من يعرض عن الله على ما تقتضيه حكمته وعدله.

والتكذيب هنا يبدو كأنه الجذر المشترك بين أزمنة مختلفة؛ تتغير اللغات والأزياء والمدن والأدوات، لكن قلب الإنسان يكرر أمراضه بصور جديدة. الكبر القديم قد يرتدي اليوم لغةً حديثة، وعبادة القوة قد تتحول من صنم حجري إلى صنم سياسي أو اقتصادي أو ثقافي، والاستغناء عن الله قد يلبس ثوب الثقة المطلقة بالعلم أو السوق أو المؤسسة أو الذات، لكن الجوهر واحد: أن ينسى المخلوق حدوده ويجعل مما أوتيته ستاراً بينه وبين الواهب.

ثم تقول الآية: ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرٌ﴾، أي كيف كان إنكاري عليهم وعقوبي لهم. والسؤال لا يحتاج إلى جواب لفظي؛ آثار الأمم وأخبار الوحي تجيب. الذين كانت لهم قوة صاروا خبراً، والذين ملأوا الأرض حضوراً صار ذكرهم جزءاً من ذاكرة البشر، والذين ظنوا أن التاريخ يقف عند أبواب قصورهم مضى التاريخ من فوقهم. وهنا يتعلم المؤمن معنىً شديد الأهمية: لا توجد قوة بشرية محصنة من النهاية. قد تطول المهلة حتى تظنها ديمومة، وقد يتأخر الحساب حتى يفسره المتكبر رضا، لكن تأخر السنة لا يعني تعطيلها.

سُورَةُ الْمُلْكِ | حِينَ يَسْقُطُ وَهُمْ الْأَمْتَلَاكِ

والتاريخ في القرآن لا يستخدم لإنتاج شعور شماتة في الهالكين، وإنما لإنقاذ اللاحقين من تكرار أخطائهم. إن أسوأ طريقة لقراءة أخبار المكذبين أن تقول: ما أسوأهم، ثم تعود إلى بعض طبائعهم في نفسك. المقصود أن تسأل: أيُّ من أمراضهم يمكن أن يكون فيّ؟ هل أرفض النصيحة لأن قائلها أقل منزلةً في عيني؟ هل أستقوي بالكثرة؟ هل أظن أن ما أملكه دليل على أن الله راضٍ عن كل ما أفعل؟ هل أدفع الحقيقة لأن قبولها سيجبرني على تغيير نمط حياتي؟ حينها يصبح التاريخ حياً لا متحفاً، ويصبح القرآن كتاباً يقرأك وأنت تقرأه.

ولعل قوله ﴿مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ يضع الإنسان أمام قانون الزمن: أنت أيضاً ستصبح «من قبل» بالنسبة لأجيال لاحقة إن امتد العمر بالعالم، وسيأتي وقت لا يبقى من ضحجك اليوم إلا أثر. كم من معركة تراها الآن نهاية العالم ستكون بعد عقود سطرًا، وكم من شخص يملأ الشاشة والحديث سيصير اسمًا في أرشيف، وكم من قلق تمنحه كل قلبنا سيتحول إلى شيء لا يعرفه أحد. وهذه الرؤية لا تقلل مسؤولية الحاضر، بل تنقذه من التضخم؛ تعطيه حجمه، وتقول لك: لا تبع آخرتك لحادث عابر سيصبح غداً خبرًا.

الآية التاسعة عشرة: الطير الذي يفتح جناحيه فوق رأسك درسٌ في التوكل

سُورَةُ الْمُلْكِ | حِينَ يَسْقُطُ وَهُمْ الْأَمْتَلَاكُ ج
﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يَمْسُكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ﴾

وبعد الخسف والحاصب والتاريخ والعقوبة، تأتي صورة مختلفة تماماً: طائر في الهواء. هذا هو القرآن؛ ينقلك من مشهد يزلزل الجبال إلى جناح يرفرف فوقك، ثم يجعل من ذلك الجناح الصغير برهاناً كاملاً على ربوبية الله. ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَاتٍ وَيَقْبِضْنَ﴾. ومن فرط الألفة قد نقرأ الصورة دون أن نستعيد عجبها الأولى؛ مخلوق له جسد ووزن، لا يقف على شيء نراه، يمد جناحيه ويضمهما ويتحرك في فضاء مفتوح، ونحن نراه حتى صار عادياً. لكن القرآن لا يعترف بهذا «العادي» الذي صنعه التكرار، يعيد السؤال إلى العين: أولم يروا؟ كأن المشكلة ليست غياب المشهد، بل غياب الرؤية.

وفي ﴿صَافَاتٍ وَيَقْبِضْنَ﴾ تصوير للحركة نفسها؛ بسط وقبض، امتداد وانضمام، كأن الآية تتحرك أمامك بجناحين. واللغة هنا لا تخبر فقط، بل ترسم؛ وحين يتأمل الإنسان هذه الحركة يدرك أن القرآن يريد أن يقوده من المرئي إلى ما وراءه: من الجناح إلى من خلق الجناح، ومن قانون الطيران إلى من خلق القانون، ومن قدرة الطائر على استعمال الهواء إلى من أوجد الهواء والطائر والقدرة معاً.

سُورَةُ الْمُلْكِ | حِينَ يَسْقُطُ وَهُمْ الْأَمْتَلَاكِ

ثم تأتي العبارة التي قد يسيء فهمها من يفصل بين الإيمان والسنن: ﴿مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا

الرَّحْمَنُ﴾. فالإمساك الإلهي لا ينفي الأسباب المادية التي خلقها الله، ولا يلغي ما نعرفه من

خصائص الأجنة والهواء والحركة، وإنما يضع هذه الأسباب في حقيقتها: هي نفسها من

خلق الرحمن وإبقائه وتقديره. والعلم حين يشرح لك كيف يطير الطائر لا يكون قد أجاب

عن كل شيء؛ لقد وصف علاقات وقوانين داخل الكون، لكنه لا يستغني بذلك عن

السؤال الأعمق: من أوجد هذا النظام أصلاً؟ ومن أعطى المادة خصائصها؟ ومن جعل

قوانينها قابلة للانتظام والفهم؟ الإيمان لا ينافس التفسير العلمي داخل مجاله، بل يضع وجود

ذلك المجال كله تحت سلطان الخالق.

وما أبدع أن يعود اسم الرحمن هنا كما جاء في قوله: ﴿مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ

تَفَافُوتٍ﴾. في السماء كان الرحمن وراء الإحكام، وهنا الرحمن وراء الإمساك. وكأن

السورة تربط انتظام الكون واستمرار الحياة بالرحمة؛ ليست الرحمة مجرد عفو بعد ذنب، بل

الإمساك نفسه رحمة، أن يبقى النظام قائماً، وأن يعمل الجناح، وأن يحمل الهواء، وأن تسلك

المخلوقات سننها. نحن نبحث عن رحمة الله في الاستثناءات الكبيرة، بينما السورة تعلمنا

رؤيتها في استمرار الأشياء على ما هي عليه.

سُورَةُ الْمُلْكِ | حِينَ يَسْقُطُ وَهُمْ الْأَمْتَلَاكُ

ويمكن للقلب أن يتعلم من الطير درساً في التوكل لا ينساه؛ فالطائر لا يبقى في عشه ينتظر رزقه، بل يفتح جناحيه ويخرج ويواجه الهواء ويتحرك، ومع ذلك فإن حركته كلها داخل إمساك الرحمن. وهذا قريب من معنى الآية السابقة: ﴿فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ﴾. المشي لا يناقض التوكل، والطيران لا يناقض الإمساك؛ بل السبب نفسه صورة من صور افتقارك إلى الله. ومن أجمل صور الإيمان أن يفهم الإنسان أن أخذ السبب لا يعني أنه خرج من التوكل، بل قد يكون من كماله إذا أخذ السبب مأموراً به وقلبه لا يعلق النتيجة بالسبب استقلالاً.

كم من إنسان يريد الطمأنينة قبل أن يفتح جناحه، ويريد الضمان قبل أن يبدأ، ويريد أن يعرف نهاية الطريق قبل أن يخطو أول خطوة، بينما الطير في السماء يعطيه درساً بلا كلام: هناك أوقات لا تُعطى فيها كل ضمانات الطريق، لكنك تُعطى القدرة على الخطوة التالية. افتح جناحك بما أباح الله، وخذ بالأسباب، وتذكر أن الذي يحمل الطير لا يعجزه حمل شأنك؛ لا بمعنى أنه سيعطيك كل ما تريد في الصورة التي تريدها، بل بمعنى أنك لست خارج علمه ولا قدرته ولا رحمته لحظة واحدة.

ثم تختم الآية: ﴿إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ﴾. والبصير سبحانه لا تخفى عليه حركة جناح في أعالي الجو، فكيف يخفى عليه قلبك وهو يرجف؟ لا يغيب عنه طائر صغير في فضاء هائل،

سُورَةُ الْمُلْكِ | حِينَ يَسْقُطُ وَهُمْ الْأَمْتَلَاكِ

فكيف تغيب عنه حاجتك؟ وهذه ليست مقارنة في مقدار العناية على قياس البشر، وإنما تقريب للمعنى إلى قلب العبد: الذي أحاط علمه بكل شيء لا يضيع عنده شأن، ولا يسقط من علمه شيء لصغره. والإنسان هو الذي ينسى الصغير حين ينشغل بالكبير، أما الله سبحانه فلا يشغله شأن عن شأن.

وفي ختام هذه الآيات يتكون أماننا مشهد بالغ الجمال والدقة: الأرض يمكن أن تمور، والسماء يمكن أن يأتي منها الحاصب، والتاريخ شاهد على سقوط من كذب، ثم فوق كل هذا الخوف يمر طائر في الفضاء فيعيد إلى القلب معنى الرحمة. كأن السورة لا تريد أن تتركك في رعب العجز، بل تنقلك من العجز إلى التعلق؛ فهي لا تقول: أنت ضعيف، إذن ارتعب، بل تقول: أنت ضعيف، إذن اعرف أين تضع قلبك. الفرق شاسع بين الخوف الذي يبعثر الإنسان والخوف الذي يعيده إلى الله؛ الأول يولد من الإحساس بأن العالم بلا مالك، والثاني يهدأ داخل اليقين بأن الملك بيد الرحمن.

وهكذا فإن هذا الفصل كله يهدم أركان الأمن الزائف ليبني بدلها أمناً أعمق: ليس أمانك لأن الأرض لا تتحرك، بل لأنك عبدٌ للذي يملك حركتها وسكونها؛ وليس رجاؤك لأن السماء لن ترسل ما يخيف، بل لأنك تعرف رب السماء؛ وليس يقينك لأن التاريخ لا

سُورَةُ الْمُلْكِ | حِينَ يَسْقُطُ وَهُمْ الْأَمْتَلَاكِ

يحمل كوارث، بل لأن السنن لا تعمل خارج الحكمة؛ وليس توكلك لأنك تملك جناحين
قويين، بل لأنك تعلم أن ﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ﴾.

ومن هنا ستنقل السورة إلى وهم آخر أشد التصاقاً بالنفس: وهم النصير ووهم الرزق؛
ستسأل الإنسان عَمَّنْ يملك له جنداً ينصره من دون الرحمن، وعَمَّنْ يرزقه إن أمسك الله
رزقه، لتكشف أن الأمن ليس وحده مستعاراً، بل القوة والاقتصاد والحماية وشبكات
المصالح كلها لا تقوم خارج الملك. وعندها سيجد الإنسان نفسه أمام السؤال الذي يطارده
منذ أول السورة: إذا كان كل ما تعتمد عليه مخلوقاً، فمن الذي يستحق أن يعتمد عليه
القلب؟

حين تنهاوى أوهامُ القوة والرزق أمام الرحمن

الآية العشرون: الجند الذي لا يستطيع أن ينصر نفسه

﴿أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَّكُمْ يَنْصُرُكُمْ مِّنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِنِ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ﴾

بعد أن أَرانا القرآن الطيرَ معلقاً في الفضاء لا يمسكه إلا الرحمن، ينتقل من مخلوق ضعيف لا يتوهم لنفسه سلطاناً إلى الإنسان الذي يجب أن يصنع حول ضعفه أسوار القوة، فيجمع الرجال، ويبني التحالفات، ويكدس السلاح، ويحيط نفسه بالأموال والمكانة والنفوذ، ثم قد يتسلل إلى قلبه من كثرة ما يرى حوله من أسباب الحماية شعور خفي بأن هذه الأشياء قادرة بذاتها على منحه النجاة، فتأتي الآية كأنها تسحب الستار فجأة عن كل هذه القوة المرئية وتُسأل سؤالاً لا يحتاج إلى جدل طويل: ﴿أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَّكُمْ يَنْصُرُكُمْ مِّنْ دُونِ الرَّحْمَنِ﴾؟ أروني هذه القوة التي تستطيع أن تقف بينكم وبين أمر الله إذا نزل، وأروني ذلك الجند الذي يملك لنفسه البقاء فضلاً عن أن يمنحكم بقاءً لا يأذن به الله، وأروني تلك المنعة البشرية التي تستطيع أن تحرس نبضةً واحدة في قلب قائدها إذا جاءها الأجل؛ وحين

سُورَةُ الْمُلْكِ | حِينَ يَسْقُطُ وَهُمْ الْأَمْتَلَاكِ

يصاغ السؤال بهذه الصورة تنهار هيبة القوة المستعارة، لا لأن القرآن ينكر قيمة الجند والأسباب والحماية، وإنما لأنه يرفض أن تنتقل هذه الأشياء من منزلة الوسيلة إلى منزلة الملاذ الأخير، فالسبب سبب، والجند جند، والقوة قوة، ولكنها كلها مخلوقة داخل الملك الذي افتتحت به السورة، لا تملك أن تفصل عنه ولا أن تنازعه.

ولعل مجيء اسم ﴿الرَّحْمَنِ﴾ في هذا الموضع من أعجب ما في الآية؛ فلم يقل: من دون القوي، ولا من دون الجبار، مع أن المقام مقام نصر وقوة، بل قال: ﴿مِّنْ دُونِ الرَّحْمَنِ﴾، وكأن السورة تريد أن تعيد بناء تصور الإنسان عن مصدر الحماية؛ فالذي يمسك الطير هو الرحمن، والذي يحفظ الأرض من أن تمور هو الرحمن، والذي يمنع عن العبد ما لا يطيق هو الرحمن، وحتى القوة التي يتوهم الإنسان أنها صنعتها الخاصة إنما نشأت داخل فيض سابق من الرحمة: جسد يستطيع الحركة، وعقل يستطيع التخطيط، وأناس يمكن أن يجتمعوا، وأرض تحملهم، وزمن يسمح لهم بالفعل. كل هذا لم يُنتزع من الله انتزاعاً، بل أُعطي، وما أعطاه الله قادر على أن يسلبه، لا ظلاً منه سبحانه، وإنما وفق حكمته ومملكه وعدله.

وما أكثر ما يخدع الإنسان لفظ الجند؛ فهو يحب العدد لأنه يمنحه إحساساً بالثقل، ويجب أن يرى الصفوف خلفه، والأسماء حوله، والأنصار في هاتفه، والأتباع في مجلسه، ويظن أن

سُورَةُ الْمُلْكِ | حِينَ يَسْقُطُ وَهُمْ الْأَمْتَلَاكِ

كثرة من يقفون معه تعني أن الحق أقرب إليه أو أن الهزيمة أبعد عنه، لكن تاريخ البشر كله يفضح هذا الوهم؛ كم من جند كثير تفرق حين دخل الخوف في القلوب، وكم من جيش عظيم هُزم من موضع لم يحسبه، وكم من سلطان ظن أن حوله رجالاً فإذا حوله مصالح، فلما تغيرت المصلحة تبخر الرجال، وكم من شخص ملأ الدنيا حضوراً ثم لما احتاج إلى من يدفع عنه مرضاً أو موتاً أو سقوطاً عجزت الجموع التي كانت تهتف باسمه. ليست القوة وهماً كلها، ولكن الوهم أن تخلط بين وجود القوة وبين استقلالها.

ولهذا فإن المؤمن لا يحتقر الأسباب ولا يتأله بها؛ يبني قوته لأن الله أمره بما يستطيع من الإعداد، لكنه يعرف أن القوة لا تُعبد، ويطلب النصرة من الوسائل المشروعة لكنه لا يسلم قلبه لها، ويقيم العلاقات والتحالفات لكنه لا يجعل منها عقيدة، لأن المؤمن إذا استبدل التوكل على الله بالتعلق بالناس قد يجد نفسه يوماً محاطاً بمن ظنهم جنده ثم لا يجد واحداً منهم قادراً أن يمنحه ما احتاج إليه. وهذا التحرر من عبودية القوة لا يجعل الإنسان ضعيفاً، بل يجعله أشد قوة أخلاقية؛ لأن من لا يعبد حماية الناس يستطيع أن يقول الحق إذا هدته مصالحهم، ومن لا يجعل رزقه في يد بشر يستطيع أن يرفض مذلةً تعرض عليه في صورة فرصة، ومن استقر في قلبه أن النصر من الله لا يقيس الحق بعدد جنوده.

سُورَةُ الْمُلْكِ | حِينَ يَسْقُطُ وَهُمْ الْأَمْتَلَاكِ

ثم تختم الآية: ﴿إِنَّ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ﴾، والغرور هو الانخداع بما يبدو لك أكبر من حقيقته أو أبقى مما هو عليه، وهذه كلمة شديدة المناسبة لكل ما سبق؛ فالمشكلة ليست أن الناس لا يملكون جنداً بالفعل، بل أن الجند يغريهم بتجاوز حقيقته، وليس الخطأ أن المال موجود، بل أن المال يوهم صاحبه بأنه أكثر أمناً مما هو عليه، وليست الأزمة أن السلطة قوية، بل أن القوة قد تخدع حاملها حتى ينسى أنها عارية. الغرور ليس عدم وجود الشيء، بل سوء تقدير حجمه ومآله؛ قد يكون عندك شيء حقيقي، لكنك تبني عليه ثقة لا يستحقها، وهنا تبدأ الخديعة.

ولعل أخطر أنواع الغرور ما كان دينياً أو أخلاقياً مستتراً؛ أن يظن الإنسان أن كثرة من حوله دليل على صحة طريقه، أو أن نجاح مشروعه الدنيوي علامة حتمية على رضا الله عنه، أو أن تأخر العقوبة شهادة براءة، أو أن ستر الله عليه إقرار باستمراره. وكل ذلك من الخلط بين الإهمال والإهمال، وبين النعمة والشهادة، وبين السبب والضمان. وسورة الملك منذ بدايتها تدرب القلب على ضد هذا كله: لا شيء يملك نفسه، فلا تجعله مالكاً لقلبك.

الآية الحادية والعشرون: ماذا يبقى من الاقتصاد إذا أمسك الرزق؟

﴿أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ ۚ بَلْ لَجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ﴾

سُورَةُ الْمُلْكِ | حِينَ يَسْقُطُ وَهُمْ الْأَمْتَلَاكِ

ما إن تسقط السورة وهم القوة حتى تنتقل إلى وهم آخر ربما كان أشد التصاقاً بالحياة اليومية: الرزق. فالإنسان قد يعترف لله نظرياً بأنه الرزاق، لكنه يعيش أحياناً وكأن الرزق في يد الوظيفة، أو المدير، أو السوق، أو البلد، أو الزبون، أو المشروع، أو الراتب، أو صاحب النفوذ، فتأتي الآية بصيغة السؤال نفسها التي لا تترك للقلب مهرباً: ﴿أَمَّنْ هَذَا الَّذِي رَزَقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ﴾؟ من هذا الذي يملك أن يعوضكم عن رزق الله إن أمسكه؟ من الذي يصنع الماء إذا غار، أو يخلق خصوبة الأرض إذا رُفعت، أو يهب الجسد قدرةً على العمل إذا ذهبت، أو يضع القبول في قلوب الناس، أو يفتح باباً لم يكن في الحسبان؟ تستطيع أن تعدد وسائل الرزق إلى ما شئت، لكن السؤال القرآني يعود بك دائماً إلى ما وراء الوسائل: من الذي جعلها وسائل أصلاً؟

وقوله ﴿رِزْقَهُ﴾ يعيد إلى الذاكرة قوله قبل قليل: ﴿وَكُلُّوا مِنْ رِزْقِهِ﴾، فكأن السورة تريد ألا يفلت هذا المعنى من القلب؛ أنت تمشي، وتسعى، وتعمل، وتسام، وتزرع، وتبيع، وتشتري، لكن الذي يصل إليك في النهاية هو رزقه. وليس معنى ذلك أن كل طريق سلكه الإنسان إلى المال مشروع، فالرزق المقدر لا يبرر الحرام، بل العكس هو الصحيح: إذا كان رزقك بيد الله، فما حاجتك أن تعصيه في طلب ما عنده؟ ما أشد المفارقة أن يؤمن العبد بأن الله هو الرزاق ثم يكذب، أو يظلم، أو يسرق، أو يبيع ضميره خشية أن يفوته الرزق؛

سُورَةُ الْمُلْكِ | حِينَ يَسْقُطُ وَهُمْ الْأَمْتَلَاكِ

كأنه يقول بلسان الحال إن الحرام قادر على أن يفتح له باباً عجز عنه رب العالمين! ولو استقر التوحيد في هذه المنطقة من القلب لأغلق أبواباً كثيرة من الذل.

و﴿إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ﴾ لا تعني فقط انقطاع المال، لأن الرزق أوسع من النقود بكثير، الصحة رزق، والوقت رزق، والقدرة على الاستمتاع بما في اليد رزق، والفكرة رزق، والصديق الصادق رزق، والسكينة رزق، والولد رزق، والعلم رزق، والفرصة رزق، والقدرة على النوم ليلاً رزق، بل قد يملك الإنسان خزائن ثم يُمسك عنه رزق الانتفاع بها فيعيش في خوف أو مرض أو شقاء لا تشتري له الأموال طمأنينة. وحين نفهم الرزق بهذه السعة ندرك كم أن الإنسان فقير إلى الله في كل طبقة من طبقات وجوده، وأن الغنى الحقيقي ليس أن تكثر ممتلكاته، بل ألا يُحرم بركة ما أُعطي.

وقد يكون من دقائق التربية في هذه الآية أن تعلمنا الفرق بين باب الرزق والرزاق؛ فالوظيفة باب، ولكن الباب لا يخلق ما وراءه، والإنسان الذي يساعدك سبب، لكنه ليس المصدر، والسوق مجال، لكنه لا يملك رزقك استقلالاً. وإذا اختلط الباب بالمصدر استعبدك الباب؛ تخاف فقدته خوف من يرى أن الحياة تنتهي بعده، وتتنازل له عما لا ينبغي، وتداهن، وربما تضع دينك كي يبقى مفتوحاً، أما إذا عرفت أن الله قادر على أن يغلق باباً ويفتح آخر لم تره، تعاملت مع الأسباب بجديّة من غير عبودية.

سُورَةُ الْمُلْكِ | حِينَ يَسْقُطُ وَهُمْ الْأَمْتَلَاكِ

وهذا لا يعني أن المؤمن يستخف بانقطاع العمل أو الفقر أو الجوع؛ فالقرآن لا يزيّف مشقة الحياة، والفقر قد يكون مؤلماً ثقيلاً، بل إن الأمر بالسعي شاهد على اعتبار الأسباب، وإنما الفرق في موضع القلب أثناء الخوف. قد يقلق المؤمن على رزقه، فهو بشر، لكنه لا يجعل القلق إلماً يصدر له الأوامر، ولا يسمح للخوف أن يحوله إلى إنسان بلا مبدأ. كلها قال له الخوف: إن لم تفعل الحرام ضاع رزقك، رد عليه التوحيد: ومن يرزق إن أمسك الله رزقه؟ وكلها قال له التعلق بإنسان: لا تستطيع العيش من دونه، ردت الآية: أهذا هو الذي يرزق؟ ثم تأتي المفاجأة المؤلمة: ﴿بَلْ جَئُوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ﴾. بعد سؤال بهذه القوة كان المتوقع أن تلين القلوب، لكنهم لجؤا؛ تبادوا وأصروا، والعتو تجاوز الحد مع استكبار، والنفور إعراض وابتعاد. وكأن السورة تكشف أن المشكلة ليست دائماً في غياب البرهان؛ فقد تكون الحجة أمامك شديدة الوضوح ومع ذلك تصر النفس على الفرار منها، لأن الاعتراف بالحقيقة سيجردها من وهم السيادة. وهنا يظهر مرض القلب الذي لا تعالجه الحجة وحدها: قد يعرف الإنسان ولكنه لا يريد أن يخضع لما عرف.

ولفظ ﴿جَئُوا﴾ يصور الإصرار نفسه كأنه حركة داخل طريق مغلق؛ لا يكفي أنهم أخطأوا، بل استمروا في الخطأ بعد انكشافه، وهذه هي النقطة التي يتحول عندها الذنب من عثرة إلى طريق. كل إنسان يخطئ، لكن الفرق بين قلب حي وقلب قاسٍ أن الأول إذا

سُورَةُ الْمُلْكِ | حِينَ يَسْقُطُ وَهُمْ الْأَمْتَلَاكِ

رأى خطأه توقف، والثاني يحول الدفاع عن ذاته إلى أهم من العودة إلى الحق. والتو بيبدأ أحياناً من شيء صغير جداً: كلمة لا تريد الاعتذار عنها، موقف لا تريد مراجعته، فكرة استثمرت فيها صورتك أمام الناس حتى أصبح التراجع عنها في نظرك هزيمة شخصية، ثم تمضي فيها لأن كلفة الاعتراف صارت أثقل على الأنا من كلفة الباطل على الضمير.

الآية الثانية والعشرون: أَيُّ السَّيْرَيْنِ أَهْدَى، وجهٌ على التراب أم قامة على الصراط؟

﴿أَفَنُيَمْشِيْ مُّكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيْمٍ﴾

ثم تقدم السورة واحدةً من أبدع الصور القرآنية لتفسير الفرق بين الهدى والضلال، فلا تدخلهما في تعريفات نظرية، وإنما تجعلهما صورتين تمثليان أمامك: إنسان مكب على وجهه، وآخر يمشي سويًا على صراط مستقيم. ومن تأمل المشهد شعر أن الضلال قبل أن يكون خطأً في المعلومة هو اضطراب في هيئة السير كلها؛ فالذي يمشي مكبًا على وجهه لا يرى الطريق كما ينبغي، ويتعثر، ويقترب وجهه من التراب، ويغيب عنه الأفق، بينما الذي يمشي سويًا منتصب القامة، واضح الاتجاه، على صراط معروف، يرى أمامه ويزن خطوته.

﴿أَفَنُيَمْشِيْ مُّكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ﴾؛ وما أقسى الصورة على غرور الإنسان الذي يظن أن

الإعراض عن الله تحرير له، فإذا القرآن يصوره في هيئة من فقد حتى اعتدال المشية.

سُورَةُ الْمُلْكِ | حِينَ يَسْقُطُ وَهُمْ الْأَمْتَلَاكِ

فالحرية التي تتفصل عن الحقيقة ليست صعوداً دائماً، وقد تكون انقلاباً على الوجه؛ لأن الإنسان حين يرفض هداية الوحي لا يصبح بلا مرجعية، وإنما ينتقل غالباً إلى مرجعيات أخرى: الهوى، المزاج، ضغط المجتمع، اللذة، المنفعة، الموضة الفكرية، الخوف، القوة، وحينئذ لا يكون قد تحرر من العبودية بل غيّر سيده، وربما صار عبده الجديد أشدّ إذلالاً له لأنه يسكن داخله.

وفي صورة المكب على وجهه إشارة بالغة إلى محدودية الرؤية؛ فالوجه قريب من الأرض حتى يكاد يرى ما أمامه لحظةً بلحظة ولا يرى المدى. وهكذا يفعل الهوى بالإنسان: يقرب إليه اللذة القريبة حتى تحجب عنه العاقبة البعيدة، فيأخذ القرار من زاوية اللحظة، يرجع الآن ولو خسر بعد ذلك، ينتقم الآن ولو هدم علاقة، يشتهي الآن ولو جرح روحه، يجمع الآن ولو حمل مظالم إلى قبره. أما الهدى فيرفع الرأس من سجن اللحظة إلى أفق المصير، ولهذا كانت الآخرة جزءاً جوهرياً من استقامة الرؤية؛ لأنها تعطي الفعل امتداده الكامل.

ثم يقول: ﴿أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا﴾، والسواء هنا ليس مجرد اعتدال جسدي في الصورة، بل يفيض بمعنى الاستقامة والاتزان؛ فالهدى يعيد الإنسان إلى وضعه الصحيح مع نفسه وربه والعالم. لا يعده بآلا يتعب، فالمشي نفسه جهد، ولا يقول إن الصراط بلا مشقة، لكنه يمنحه شيئاً أثمناً: وضوح الجهة. وما أكثر الفرق بين تعب من يعرف إلى أين يذهب وتعب

سُورَةُ الْمُلْكِ | حِينَ يَسْقُطُ وَهُمْ الْأَمْتَلَاكِ

من يدور؛ قد يكون الأول أشدَّ جهداً لكنه مطمئن بالاتجاه، والثاني يستهلك عمره في حركة كثيرة لا تقربه من غاية.

ثم تأتي الكلمة الحاسمة: ﴿عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾؛ فليست الاستقامة أن يمشي الإنسان «سويّاً» بحسب تعريفه الذاتي فقط، بل أن يكون أيضاً على طريق مستقيم. قد يكون المرء متماسكاً، واثقاً، ذكيّاً، منظماً، ولكنه يسير بكفاءة عالية في الاتجاه الخطأ؛ ولهذا لا يكفي حسن الأداء بلا صحة الوجهة. ويمكن للإنسان أن ينجح نجاحاً مذهلاً في شيء يبعده عن الله، وأن ينظم حياته بدقة وهي تسير بعيداً عن غايتها، وأن يكون قوي الشخصية وهو عبد لهواه. فالقرآن لا يسأل فقط: كيف تمشي؟ بل: على أي طريق تمشي؟

وهنا نفهم حاجة الإنسان إلى الوحي؛ ليس لأنه لا يملك عقلاً، بل لأن العقل يحتاج إلى مرجع يتلقى منه الغاية الكبرى ومعياري الخير والشر الذي لا يخلقه الهوى. العقل يستطيع أن يحسن اختيار الوسيلة بعد أن يعرف الهدف، لكنه إن صار هو الذي يصنع الغاية النهائية بمعزل عن الله قد يتحول إلى خادم ماهر لرغبات صاحبه. ولذلك كانت الهداية نعمة لا تقل عن نعمة السمع والبصر؛ أن تعرف الطريق قبل أن تنفق العمر في اختبار به بكل أخطائه الممكنة.

سُورَةُ الْمُلْكِ | حِينَ يَسْقُطُ وَهُمْ الْأَمْتَلَاكُ

والصورة القرآنية تدعو القارئ إلى سؤال شديد الخصوصية: كيف أمشي أنا؟ ليس ماذا أقول عن الحق، ولا ما الانتماء الذي أعلنه، بل كيف تمشي حياتي بالفعل؟ هل قراراتي ترفع وجهي أم تكبه؟ هل أملك اتجاهًا أخلاقيًا واضحًا أم أن كل ضغط يغيرني؟ هل أنا على صراط أم على سلسلة استجابات للظروف؟ قد يكون الإنسان يعرف الطريق نظريًا ثم يمشي عمليًا مكبًا على وجهه إذا انتصر هواه، ولهذا لا يكفي أن تعرف الصراط؛ تحتاج في كل يوم أن تستقيم عليه.

الآية الثالثة والعشرون: السمع والبصر والقلب ليست أدوات حياة فقط، بل أمانات هداية

﴿قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾

بعد أن رسمت الآية السابقة صورتين لطريقين، تعيد السورة الإنسان إلى تكوينه الأول: ﴿قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ﴾. وكلمة أنشأكم تردك إلى لحظة لا تملك منها شيئًا؛ لم تختَر أن توجد، ولم تصمم جسدك، ولم تطلب لنفسك عقلًا، ولم تتركب عينيك في موضعيهما، ولم تخلق في أذنك قدرة تحويل الذبذبات إلى معنى، ولم تمنح قلبك وأجهزة وعيك ذلك التعقيد الهائل. لقد وجدت فوجدت الأدوات معك، ثم من شدة استمرارها توهمت أنها جزء من «حقك الطبيعي»، فحاء القرآن يردّها إلى المانح.

سُورَةُ الْمُلْكِ | حِينَ يَسْقُطُ وَهُمْ الْأَمْتَلَاكُ

ثم يعدد ثلاثة من أعظم منافذ المعرفة: ﴿السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ﴾ . وما أجل اتصال هذه الآية باعتراف أهل النار سابقاً: ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ﴾ ؛ كأن السورة تقول لك الآن: تلك الأدوات التي تحسروا على تعطيلها قد أعطيتها أنت أيضاً، فإذا ستفعل بها قبل أن تتحول النعمة إلى حجة عليك؟ السمع ليس فقط لتلقي الأصوات، والبصر ليس فقط لجمع الصور، والفؤاد ليس فقط ليحمل الانفعالات، بل كلها منافذ إلى الهداية إذا استعملت كما ينبغي.

وقد أفرد السمع وجمع الأبصار، وهو نسق قرآني له لطائفه البيانية، ولكن الأهم في مقام التدبر أن ندرك أن هذه الحواس لا تعمل منفصلة عن الداخل؛ قد ترى العين الآية ولا يهتز الفؤاد، وقد تسمع الأذن الوحي ولا يتغير القرار، فالطريق من الحاسة إلى الهداية ليس آلياً. هناك قلب يفسر ما يرى، وإرادة تقبل أو ترفض، وأهواء قد تحجب؛ ولذلك كان الإنسان مسؤولاً ليس فقط عن امتلاك الأدوات، بل عن طريقة استخدامها.

وكم يختلف معنى البصر حين تقرأه بعد قوله: ﴿فَارْجِعِ الْبَصَرَ﴾ ؛ لقد أعطاك الله البصر ثم دعاك إلى تشغيله في الكون، وأعطاك السمع ثم أرسل إليك النذير، وأعطاك الأفئدة كي تدبر وتعي، ثم ترك لك مساحة الاختيار. إن مأساة الإنسان ليست فقر الأدلة، بل قد تكون سوء استعمال النعم المعرفية؛ ينفق بصره في تتبع ما يفسد قلبه ولا ينظر به إلى آيات

سُورَةُ الْمُلْكِ | حِينَ يَسْقُطُ وَهُمْ الْأَمْتَلَاكِ

الله، ويملاً سمعه بضجيج العالم ولا يترك للوحي مساحةً هادئةً داخله، ويستعمل فؤاده في الحقد والقلق والمقارنة بدل أن يجعله محلاً للذكر واليقين.

ثم يأتي العتاب: ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾. الشكر هنا لا ينبغي أن يُحتزل في كلمة تُقال باللسان بعد النعمة، بل الشكر الكامل أن تعرف مصدر العطية وتستعملها في ما يرضيه؛ فشكر العين ليس أن تقول الحمد لله على البصر ثم تطلقها في كل ما حرم الله، وشكر السمع ليس الاعتراف بنعمته ثم ملؤه بما يلوث القلب، وشكر العقل ليس الفخر بذكائك ثم استعماله في صناعة الحجج للباطل. النعمة تشكر بوظيفتها كما تشكر باللسان.

وكلمة ﴿قَلِيلًا﴾ تقف أمام الإنسان كمرآة مخيفة؛ لأننا قد نشكر النعم الاستثنائية وننسى النعم الأساسية التي بدونها لا يمكن لأي استثناء أن يرى أو يُذاق. كم مرة شكرت الله لأنك تسمع؟ لا لأنك سمعت خبراً ساراً، بل على السمع نفسه. كم مرة رأيت نعمة أن تبصر وجهاً تحبه؟ كم مرة شكرت على قلب يستطيع أن يفهم ويتذكر ويتأثر؟ الاعتياد يأكل الشكر ببطء؛ وكلما طال بقاء النعمة ازدادت عندنا طبيعياً حتى لا نعود نراها، مع أنها لم تصبح أقل هبةً لأن الله أبقاها لنا طويلاً.

سُورَةُ الْمُلْكِ | حِينَ يَسْقُطُ وَهُمْ الْأَمْتَلَاكِ

وهنا نتضح مأساة أخرى: الإنسان قد يستعمل نعمةً من نعم الله لمحاربة دلالة النعمة نفسها؛ يستعمل العقل الذي خلقه الله لينفي حاجته إلى الله، والبصر الذي منحه له ليغفل عن آياته، واللسان الذي أوجده ليستهزئ بوحيه. وهذه من أغرب صور الجحود: أن تقف عطية الخالق في يدك ثم تحولها إلى أداة لمخاصمة الخالق، كمن يأخذ المصباح من صاحبه ثم يستعمل نوره للبحث عن حجة تنكر وجود من أعطاه المصباح.

الآية الرابعة والعشرون: انتشارُ في الأرض ينتهي إلى جمع واحد

﴿قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾

بعد الإنشاء والحواس يأتي الانتشار: ﴿قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾، أي بكم ونشركم فيها. انظر إلى البشرية وهي تتفرق في القارات والمدن والقرى، تتعدد لغاتها وألوانها ووجوهها وأرزاقها وتجارها، كل إنسان يحمل قصةً تبدو له الكون كله، وكل بيت فيه عالم صغير، وكل مدينة تمتلئ بملايين الهموم والطموحات، ثم تأتي الآية فتجمع هذا الامتداد البشري كله في جملة واحدة: الله هو الذي ذرأكم. هذا التفرق الهائل له أصل واحد، وهذه الكثرة التي يصعب على الخيال استيعابها لا تخرج فرداً واحداً منها عن علم الله.

سُورَةُ الْمُلْكِ | حِينَ يَسْقُطُ وَهُمْ الْأَمْتَلَاكِ

وفي ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ تذكير بموضع الرحلة؛ هي الأرض التي جعلها ذلولاً، والتي أمرنا بالمشي في مناكبها، والتي حذرنا أن تمور، والآن يقول إنها كذلك موضع انتشار البشر. كأن الأرض مسرح الامتحان الكبير: عليها تمشي، ومنها ترزق، وفيها تتعارف وتختلف وتبني وتتنازع، وتحت ترابها تنتهي أجساد أجيال، ثم لا تبقى هي المحطة الأخيرة، لأن آخر الجملة يفتح باباً لا تستطيع الأرض إغلاقه: ﴿وَالِيهِ تُحْشَرُونَ﴾.

ما أرهف المقابلة بين ﴿ذَرَأُكُمْ﴾ و﴿تُحْشَرُونَ﴾؛ نشر أول ثم جمع أخير، تفرق في الأرض ثم اجتماع عند الله. في الدنيا تتوزع الأجساد في مسافات لا تكاد تنتهي، لكن الآخرة تلغي هذا التشتت؛ لا تضيع نفس لأنها ماتت في بحر، ولا يختفي إنسان لأنه لم يُعرف قبره، ولا تفوت ذرة من جسد لأن القرون مرت عليها، فالذي أنشأ أول مرة قادر على الإعادة. ومن عرف البداية لم يستبعد النهاية؛ وهذا هو البرهان الذي يكرره القرآن بأشكال مختلفة: من قدر على الإنشاء قادر على الحشر.

و﴿وَالِيهِ﴾ تجعل الحشر ليس مجرد عودة إلى الحياة، بل عودة إلى الله للحساب والجزاء. والإنسان يخاف أحياناً من فكرة الموت أكثر مما يفكر في معنى ما بعده، بينما السورة تنقله إلى الأمر الأعظم: المشكلة ليست أن تموت فقط، فكل حي سيموت، وإنما: بأي شيء ستصل إلى من إليه الحشر؟ ما الذي حملته في قلبك؟ ماذا صنعت من أيامك؟ لمن كانت

سُورَةُ الْمُلْكِ | حِينَ يَسْقُطُ وَهُمْ الْأَمْتَلَاكِ

أعمالك؟ ما الحقوق التي بقيت معلقة في رقبته؟ وما الذي فعلته بالسمع والبصر والفؤاد التي أعطيت؟

وحين يعيش الإنسان تحت معنى ﴿وَالِيهِ تُحْشَرُونَ﴾ تتغير علاقته بالناس كذلك؛ لأن الذين تراحمهم اليوم وتخاصمهم وتحسد هم وتتفاخر عليهم سيقفون معك في يوم آخر بلا مظاهر الدنيا التي كانت تفصل بينكم. المناصب تُترك، والألقاب تُترك، والأرصدة تُترك، وحتى الأجساد التي صنعنا حولها كثيراً من الغرور تدخل التراب، ثم يأتي الحشر عارياً من كل ما كنا نستتر خلفه إلا العمل ورحمة الله. فما الذي يستحق إذن أن تظلم لأجله؟ وأي مكسب يستحق أن تحمل تبعته إلى ذلك الجمع؟

لقد أخذتنا هذه الآيات في رحلة من القوة إلى الرزق، ومن طريقة المشي إلى أدوات الإدراك، ومن الإنشاء إلى الحشر؛ وهي في الحقيقة تحاصر آخر بقايا الاستقلال داخل النفس. من ينصرك؟ الله. من يرزقك؟ الله. من هداك إلى الطريق؟ الله. من منحك السمع والبصر والفؤاد؟ الله. من أنشأك؟ الله. ومن إليه تعود؟ الله. فأين المساحة التي يبني فيها الغرور قصره؟ ماذا بقي للإنسان كي يتعالى به على ربه؟

سُورَةُ الْمُلْكِ | حِينَ يَسْقُطُ وَهُمْ الْأَمْتَلَاكُ

ومع ذلك، فإن القلب إذا أصر على النفور يستطيع أن يحول حتى وضوح النهاية إلى مادة للاستهزاء، ولهذا ستنقلنا السورة بعد ذلك إلى صوت المستعجلين: ﴿مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾. هناك ستنكشف صورة أخرى من الغرور: الإنسان الذي لا يكتفي بتكذيب الوعد، بل يريد أن يحدد لرب العالمين موعده، كأن تأخر الحساب في تقويمه البشري حجة على عدم وقوعه. وستقودنا الآيات الأخيرة من هذا الاستعجال المتكبر إلى اللحظة التي يرون فيها الوعد زلفَةً، ثم إلى إعلان الإيمان والتوكل، حتى تصل السورة إلى أبسط شيء في الحياة وأشدّها ضرورة: الماء؛ حيث ينتهي كل صخب الجدل أمام سؤال لا يستطيع الإنسان أن يصنع له جواباً: إذا غار الماء، فنن يا تيكم بماء معين؟

حين يقترب الوعد وتسقط آخر أوهام الإنسان

الآية الخامسة والعشرون: حين يجعل المستعجل تأخر الوعد حجةً على إنكاره

﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾

بعد أن ذكّرت السورة الإنسان بأنه منشور في الأرض ثم محشور إلى الله، كان يمكن للقلب المنصف أن يقف عند هذه الحقيقة فيستعد، لكن العتو لا يكتفي أحياناً برفض الإنذار، بل ينتقل إلى السخرية منه واستعجاله، فتسمع السورة صوت المكذبين: ﴿مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾. والسؤال هنا ليس سؤال الباحث الذي يخشى أن يفوته الحق، وإنما سؤال من يريد أن يحول تأخر الشيء إلى دليل على بطلانه، كأن الزمن الذي يقدره الإنسان لنفسه صار مقياساً لما ينبغي أن يفعله الله، وكأن الحقيقة لا تكون حقيقةً حتى تقع في الموعد الذي يقرحه المتشكك. وهذه واحدة من أقدم خدع النفس: أن تجعل الإمهال إنكاراً، وأن تفسر تأخر النتيجة على أنه سقوط للوعد، وأن تحاكم الغيب إلى ساعة الإنسان القصيرة، مع

سُورَةُ الْمُلْكِ | حِينَ يَسْقُطُ وَهُمْ الْأَمْتَلَاكِ

أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ لَا يَجْرِي أَقْدَارُهُ عَلَى اسْتَعْجَالِ الْخَلْقِ، وَلَا يَتَأَخَّرُ وَعْدُهُ لِأَنَّهُ عَزَّزَ، وَإِنَّمَا يَقَعُ فِي الْوَقْتِ الَّذِي قَدَّرَهُ بَعْلُهُ وَحُكْمَتُهُ.

وفي كلمة ﴿مَتَى﴾ يتجلى غرورٌ خفي شديد الخطورة؛ فالسائل لا يسأل هنا عن حقيقة الوعد بقدر ما يريد أن يضعه تحت امتحانه الزمني: إن كان حقًّا فليأت الآن. وهذه الروح لا تقتصر على المكذبين بالبعث، بل قد تنسلل إلى المؤمن بصورة ألطف حين يقول في نفسه: دعوت فلهاذا لم يحدث؟ صبرت فلهاذا لم يتغير شيء؟ تركت الحرام فلهاذا لم يفتح الباب؟ أحسنت فلهاذا لم أرَ ثمرة الإحسان؟ وحين يتحول السؤال من رجاء وفهم إلى اعتراض على توقيت الله يكون القلب قد اقترب من المرض نفسه وإن اختلفت الدرجة؛ لأنه يريد أن يجعل علمه القصير حاكمًا على حكمةٍ لا يحيط بها. وليس معنى ذلك أن الإنسان لا يتألم من التأخير أو لا يسأل ربه الفرج، بل أن يعرف أن الفرق كبير بين من يقول: يا رب، متى فرجك؟ وهو عبد يرجو، وبين من يقول في باطنه: إن لم يقع الآن فليس هناك حكمة ولا وعد.

والعجيب أن من يسأل متى هذا الوعد يعيش في كل لحظة داخل مقدمات الوعد؛ فعمره نفسه يمضي به إليه، وكل يوم ينقص من المسافة، وكل جنازة يراها تخبره أن الرحلة ليست نظرية، وكل شعرة بيضاء، وكل ضعف يتسلل إلى الجسد، وكل سنة تنقضي هي جواب

سُورَةُ الْمُلْكِ | حِينَ يَسْقُطُ وَهُمْ الْأَمْتَلَاكِ

جزئي عن «متى». إن الإنسان يتخيل القيامة بعيدةً لأنه ينظر إليها من تقويم الكون، لكنه إذا نظر إليها من عمره أدرك أن المسافة إليها ليست إلا بقية أيام لا يعرف عددها، وأن الموت وحده كافٍ لينقله من دار العمل إلى دار الانتظار. فما معنى أن يسخر إنسان من وعد يقترب منه في كل نبضة؟

ولعل من بديع بناء السورة أن هذا السؤال يأتي بعد قوله: ﴿وَالْيَهُ تَحْشُرُونَ﴾؛ فالحقيقة تقرر، ثم جاء الاستهزاء بها، وكأن القرآن يرينا أن المشكلة ليست دائماً في نقص البيان، بل في الموقف الأخلاقي من البيان. يستطيع الإنسان أن يجعل من أوضح الحقائق مادةً للجدل إذا لم يرد أن يخضع لها، ولذلك لا يكفي في طلب الهداية أن تقول: أريد دليلاً، بل تحتاج أيضاً إلى قلب مستعد لأن يتغير إذا ظهر الدليل. فكم من إنسان يسأل سؤالاً لا يريد له جواباً، وإنما يريد من السؤال أن يؤجل استحقاق التغيير.

الآية السادسة والعشرون: حِينَ يُرَدُّ الْعِلْمُ إِلَى صَاحِبِهِ وَتَبْقَى وَظِيفَةُ الرِّسُولِ وَاضِحَةً

﴿قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾

يأتي الجواب شديد الصفاء: ﴿قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ﴾. لا يدخل الرسول ﷺ في لعبة تحديد الموعد، ولا يتكلف علماً لم يعطه الله إياه، ولا يشعر أن مقام الرسالة يقتضي أن يعرف كل

سُورَةُ الْمُلْكِ | حِينَ يَسْقُطُ وَهُمْ الْأَمْتَلَاكِ

غيب؛ بل يضع الحد بين علم الخالق وعلم المخلوق في وضوح لا يحتمل التزيين. وهذه في ذاتها تربية عظيمة للعقل الديني: أن تعرف حدود ما تعرف، وأن يكون قول «لا أعلم» جزءاً من الأمانة لا علامة نقص. فما أفسد كثيراً من الخطاب إلا خوف الإنسان من الاعتراف بحدوده، فيتحدث فيما لم يعلم، ويخلط الظن باليقين، والتأمل بالنص، والاحتمال بالحقيقة، بينما مقام النبوة نفسه يعلمنا أن شرف الإنسان لا يكون بادعاء الإحاطة، بل بالوقوف عند ما أعطي.

﴿إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ تضع الغيب في موضعه الصحيح؛ فلا يستطيع بشر أن ينتزع من ملك الله ما لم يُطع عليه، ولا يجوز للإنسان أن يجعل جهله بموعد القيامة حجةً على عدم وقوعها، كما لا يجعل جهله بموعد موته حجةً على أنه لن يموت. نحن نخلط أحياناً بين عدم معرفة متى وعدم معرفة أن؛ وقد نوقن أن أمراً واقع مع جهلنا الكامل بموعده. والقيامة من هذا الباب: أخبر الله بها، فأصل وقوعها يقين بالخبر الصادق، وأما توقيتها فعلم عنده سبحانه.

ثم يقول: ﴿وَأِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾؛ وهذه الجملة تعيد تعريف وظيفة الرسول في مواجهة نزعة البشر إلى طلب ما ليس من مهمته. هو نذير واضح الإنذار، يبلغ الرسالة، يقيم الحجة، يدل على الطريق، أما مفاتيح الغيب وتوقيت الوعد فليست مما يملكه من ذاته. وهنا تجلي عظمة العبودية في أعلى مقامات البشر؛ فالتنبي ﷺ لا يخرج عن كونه عبداً رسولاً، لا يشارك الله

سُورَةُ الْمُلْكِ | حِينَ يَسْقُطُ وَهُمْ الْأَمْتَلَاكُ

في علمه المختص به، ولا يتجاوز حد الوظيفة التي كُلِّفَ بها. وهذا مما يحفظ التوحيد من كل غلو في الأشخاص مهما عظمت منازلهم.

وفي ﴿مُبِينٌ﴾ معنى يحمل المكلف مسؤوليته؛ فالإنذار ليس غامضاً بحيث يستطيع أن يحتج بأن الطريق لم يتضح، وإنما جاء بياناً، وهذه الكلمة ستزداد قسوة حين نرى في الآية التالية الوعد قد صار قريباً منظوراً؛ لأن المبين الذي سخروا منه لم يكن يهذي، وإنما أخبرهم بشيء لم تكن المشكلة في حقيقته، بل في تأخر رؤيتهم له.

الآية السابعة والعشرون: حين تتحول «متى؟» إلى «ها هو ذا»

﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سَيِّئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَقِيلَ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَدَّعُونَ﴾

ما أعظم المسافة بين الآيتين مع قلة الكلمات: قبل قليل كانوا يقولون ﴿مَتَى هَذَا الْوَعْدُ﴾، والآن تقول السورة: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً﴾؛ كان في أذهانهم بعيداً حتى استهزؤوا به، فإذا هو قريب. وهكذا تعمل الآخرة على تحطيم أوهام الزمن؛ كل ما استبعده الإنسان يصبح فجأة أقرب من كل ما كان يراه قريباً، وكل ما قضى عمره يجمعه وراء ظهره، وكل ما كان يهرب من التفكير فيه أمام وجهه. وما أبلغ كلمة ﴿زُلْفَةً﴾؛ أي قريباً، كأن القرآن يطوي

سُورَةُ الْمُلْكِ | حِينَ يَسْقُطُ وَهُمْ الْأَمْتَلَاكِ

المسافات دفعةً واحدة، فلا يبقى من السؤال المستهزئ إلا ارتعاشة وجهه اكتشف أن الحقيقة لم تكن تنتظر اقتناعه.

﴿سَيِّئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾؛ الوجه هنا أول موضع تظهر عليه الصدمة، ذلك الوجه الذي كان في الدنيا يحمل الثقة وربما السخرية والعناد، يتغير حين تسقط المسافة بين الخبر والمشاهدة. وفي التعبير درس شديد العمق: هناك حقائق تستطيع أن تناقشها وأنت بعيد عنها، لكن حين تدخل مجالها تنتهي البلاغة. المريض قبل التشخيص قد يتكلم بخفة عن المرض، ومن يسمع بالموت قد يجادل فيه فلسفيًا، لكن حين يطرق الموت بيتًا قريبًا يتغير الصوت. والقرآن يريد من الإنسان أن يستعير من وضوح المستقبل شيئًا يحكم به الحاضر، أن يتخيل وجهه حين تتكشف الحقائق ثم يعود إلى قراراته الآن ويسأل: هل سأرضى عن هذا الاختيار حين أراه من هناك؟

ثم يأتي القول: ﴿هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَدْعُونَ﴾؛ أي هذا ما كنتم تستعجلونه وتطلبونه على وجه التحدي. وما أقسى كلمة ﴿هَذَا﴾ هنا؛ لأن اسم الإشارة يقرب الشيء حتى كأنه أمام العين، وذاك الذي كان موضوع جدل أصبح حاضرًا لا يحتمل الإنكار. وكل إنسان في حياته يملك أشياء يقول عنها «لاحقًا»: سأؤوب لاحقًا، سأصلح لاحقًا، سأرد الحقوق

سُورَةُ الْمُلْكِ | حِينَ يَسْقُطُ وَهُمْ الْأَمْتَلَاكِ

لاحقًا، سأبدأ لاحقًا، وسأهتم بآخرتي حين أفرغ من الدنيا؛ لكن القرآن يرييك على أن «لاحقًا» ليست ملكك، وأن ما تؤجله قد يأتيك قبل أن تأتيه.

والآية في عمقها ليست فقط مشهدًا للكافرين، بل إنذار من تأخر اليقين العملي؛ فبعض المؤمنين لا يشكون في الآخرة من جهة العقيدة، لكن تصرفاتهم اليومية لا تحمل وزن هذا اليقين. يؤمن بالموت لكنه يخاضع على الدنيا كأنه خالد، ويؤمن بالحساب ثم يتوسع في ظلم الناس، ويؤمن بأن الله يرى ثم يعصي في السر، فكأن المعرفة لم تتحول بعد إلى رؤية قلبية. ولذلك يحتاج الإيمان إلى التجدد؛ لأن المسألة ليست أن تعرف فقط أن الوعد حق، بل أن يصبح حقًا حاضرًا بما يكفي ليعيد ترتيب أولوياتك.

الآية الثامنة والعشرون: مصير الداعية لا يغير حقيقة الرسالة

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكْنِي اللَّهُ وَمَنْ مَعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَنْ يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾

ثم تنتقل السورة إلى حجة أخرى تكشف خللاً بشرياً متكرراً: ربط الحقيقة بمصير حاملها. كان بعض المكذبين يتمنون للنبي ﷺ ومن معه الهلاك، كأن اختفاء الرسول سيجعل الرسالة باطلة، فتأتي الآية لتفصل بين الأمرين بوضوح: ﴿إِنْ أَهْلَكْنِي اللَّهُ وَمَنْ مَعِيَ أَوْ رَحِمَنَا﴾، فسواء وقع لهذا الداعية ولمن معه ما وقع، بقي السؤال الذي يواجه المكذب قائماً: ﴿فَمَنْ

سُورَةُ الْمُلْكِ | حِينَ يَسْقُطُ وَهُمْ الْأَمْتَلَاكِ

يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ؟ إن موت حامل الحق لا يميت الحق، وهلاك من ينذرك

لا يلغي الخطر الذي أُنذرك منه، كما أن موت الطبيب لا يشفي المرض الذي أخبرك به.

وهذه قاعدة فكرية وأخلاقية بالغة الأهمية؛ فالناس كثيراً ما يهرون من الفكرة إلى صاحبها،

فإذا عجزوا عن الإجابة عن الحق تمنوا سقوط قائله، أو فرحوا بموته، أو قتشوا في حياته عن

نقص يريحهم من مواجهة الحجة. لكن الحق لا يكتسب صحته من عصمة حامله البشري،

ولا يفقدها بسقوطه أو موته؛ وإذا كان هذا المعنى يقرر هنا في مقام النبي ﷺ من جهة أن

موته لا يرفع التكليف عن المكذبين، فهو من باب أولى قاعدة في التعامل مع سائر البشر:

قَسِ الْكَلَامَ بِمِيزَانِهِ، وَلَا تَجْعَلْ مَصِيرَ قَائِلِهِ بَدِيلًا عَنْ خَفْصِهِ.

وفي قوله ﴿أَوْ رَحِمَنَا﴾ أدب عبودية رفيع؛ فالنجاه نفسها رحمة، لا استحقاق مستقل، حتى

أفضل الخلق وأصحابهم يعيشون تحت رحمة الله، لا تحت غرور الأعمال. وهذه إحدى

الحقائق التي توازن القلب: المؤمن يعمل، ويجاهد نفسه، ويطلب رضا الله، لكنه لا يقف

أمام ربه بلغة المطالبة المتكبرة، بل بلغة الفقير إلى الرحمة. والطاعة نفسها نعمة تحتاج إلى

شكر، والثبات توفيق، والقبول فضل؛ وكلما ارتفع الإنسان في العبودية ازداد شعوره بالفقر

لا بالاستغناء.

سُورَةُ الْمُلْكِ | حِينَ يَسْقُطُ وَهُمْ الْأَمْتَلَاكُ

ثم يأتي السؤال: ﴿فَنَ يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾، واللفظ يُجِيرُ يحمل معنى الحماية والملاجئ؛ فكأن السورة تعود إلى السؤال الذي ظل يلاحقها: من ينصر كم؟ من يرزقكم؟ من يحميكم؟ من يمسك الطير؟ من يملك الأرض؟ وفي كل مرة تسحب الإنسان من الوسيط إلى المصدر. يستطيع البشر أن يجبر بعضهم بعضاً من خطر بشري محدود في حدود ما أقدرهم الله عليه، لكن حين يأتي أمر الله لا يوجد خلفه جدار آخر. ولهذا فالمسألة ليست كم عدد من يقفون معك، بل أين تقف أنت من الله.

الآية التاسعة والعشرون: خلاصة الطريق في كلمتين؛ آمنا وتوكلنا

﴿قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ أَمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسْتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾

بلغت السورة هنا موضعاً يكاد يلخص الرحلة كلها: ﴿قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ﴾. الاسم الذي تكرر في مواقع الأحكام والإمساك يعود الآن في مقام إعلان الموقف النهائي؛ هو الرحمن، لا قوة مبهمة في الكون، ولا إلهاً مجهولاً بعيداً، بل الرحمن الذي ظهرت رحمته في الخلق، وفي الإمهال، وفي إرسال النذير، وفي إقامة الدليل، وفي الإمساك، وفي الرزق. وحتى الإنذار الذي ملأ أجزاء من السورة إنما جاء من الرحمن؛ لأن من الرحمة أن تعرف الخطر قبل الوصول إليه.

سُورَةُ الْمُلْكِ | حِينَ يَسْقُطُ وَهُمْ الْأَمْتَلَاكُ

ثم تأتي كلمتان لو صلحتا في القلب لصلحت جهات الحياة كلها: ﴿أَمْنًا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾.

الإيمان معرفة وتصديق وخضوع، والتوكل حركة قلبية تبني على هذا الإيمان اعتمادها؛ كأن الأولى تجيب: من ربنا؟ والثانية: على من نعتمد؟ وليس عجيباً أن يسبق الإيمان التوكل، لأنك لا تتوكل حقاً على من لم تعرفه؛ وكلما ازداد قلبك معرفةً بأسماء الله وصفاته وآثار ربه، ازداد توكلك نضجاً وقلّ تعلقك بالخلق.

﴿أَمْنًا بِهِ﴾ ليست عبارة هويةً فحسب، بل التزام في الرؤية: صدقناه فيما أخبر، وخضعنا لما أمر، وعرفنا أن الملك له، وأن الموت والحياة خلقه، وأن السماء صنعته، وأن السر معلوم له، وأن الأرض مدللة بأمره، وأن الرزق رزقه، وأن الحشر إليه. كل الآيات السابقة تتجمع داخل كلمة آمنا؛ فالإيمان في القرآن ليس فكرةً معزولةً عن العالم، بل طريقة كاملة لقراءته.

ثم ﴿وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾؛ وتقديم الجار والمجرور يفيد العناية والاختصاص، أي عليه اعتماد قلوبنا. وهذا لا يلغي الأسباب التي أمر بها، بل يمنع القلب من أن يجعل منها أرباباً صغيرة. نعالج لأن الله شرع الأسباب، لكن الشفاء بيده؛ ونعمل، لكن الرزق منه؛ ونستعد، لكن النصر منه؛ ونخطط، لكن التدبير الأعلى له. وحين يعيش القلب بهذه المعادلة يصبح أكثر اتزاناً في النجاح والفشل: إذا نجح لم يقل أنا صنعت كل شيء، وإذا تعثر لم يقل انتهى كل

شيء، لأنه يعرف أن السبب ليس الإله في الحاليتين.

سُورَةُ الْمُلْكِ | حِينَ يَسْقُطُ وَهُمْ الْأَمْتَلَاكُ

والتوكل الحقيقي لا يولد من تجاهل الواقع، بل من رؤيته كاملاً؛ الواقعي الناقص يرى الأسباب فقط، والمؤمن يرى الأسباب ويرى أنها داخل الملك. ولذلك فإن التوكل ليس سداً، بل توسعة لمجال الرؤية؛ أنت تحسب ما تستطيع، ثم لا تتوهم أنك أحطت بكل شيء، وتعلم أن وراء حساباتك علماً لا يخطئ وقدرة لا تعجز. وهذا ما يمنح المؤمن قدرة على العمل من غير أن ينهار تحت وهم السيطرة؛ يفعل ما عليه ثم يترك ما ليس له لمن يملكه.

ثم تأتي خاتمة الآية: ﴿فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾. هنا يعود موضوع الهداية والضلال الذي رأيناه في صورة الرجل المكب على وجهه والرجل السوي على الصراط المستقيم. في الدنيا قد تختلط الصور، وقد يملك الضال من البريق ما يجعل الناس يحسبونه مهتدياً، وقد يبدو المستقيم غريباً أو ضعيفاً، لكن النهاية ستكشف الطريق. وهذا من أعظم ما يحرر المؤمن من ضغط اللحظة؛ ليس مطلوباً أن يحكم العالم كله لك الآن بأنك على الحق، بل أن تكون على الحق فعلاً. كم من باطل صفت له أجيال ثم انكشف، وكم من صادق عاش غريباً ثم حفظت الأيام صدقه، لكن حتى إن لم يتكشف ذلك في الدنيا، فهناك يوم لا تبقى فيه الصور الإعلامية ولا الألقاب ولا قوة الجموع؛ يبقى الميزان الإلهي وحده.

سُورَةُ الْمُلْكِ | حِينَ يَسْقُطُ وَهُمْ الْأَمْتَلَاكُ

الآية الثلاثون: قطرة الماء التي تهدم ما بقي من غرور

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَأْوُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَّعِينٍ﴾

ثم تأتي الخاتمة التي لا تحتاج إلى نارٍ ولا زلزالٍ ولا انهيار سماء؛ تحتاج فقط إلى الماء. بعد أن طافت السورة بالملك والقدرة، والموت والحياة، والسموات، والنجوم، والسياطين، والنار، والسرائر، والأرض، والجند، والرزق، والطير، والحشر، تنتهي عند أبسط شيء ترفعه يدك كل يوم إلى فك: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَأْوُكُمْ غَوْرًا﴾. وما أعجب أن تنتهي سورة اسمها «الملك» بالماء؛ كأن القرآن يريد أن يقول: إن أردتم أن تعرفوا معنى الملك فلا تحتاجون إلى أن تتخيّلوا عروشًا وجيوشًا فقط، انظروا إلى الكأس الذي تشربونه. من يملكه على الحقيقة؟ من يملك أن يبقّي مصدره قريبًا منكم؟ من يملك أن يرده إذا مضى في أعماق الأرض بعيدًا عن أيديكم؟

﴿مَأْوُكُمْ﴾؛ أضافه إليهم بحسب الانتفاع والاختصاص الظاهر، ثم يهدم وهم الملكية بالسؤال. تقولون «ماؤنا»، نعم، لكن ماذا تملكون منه إن غار؟ وهذه واحدة من أروع طرق القرآن في تهذيب معنى الملك البشري: يسمح لك أن تقول بيتي، ومالي، ومائي، ثم يريك أن هذه الإضافة لا تعني الملك المطلق؛ إنك تملك على قدر ما أذن لك، وما في يدك

سُورَةُ الْمُلْكِ | حِينَ يَسْقُطُ وَهُمْ الْأَمْتَلَاكِ

يمكن أن يخرج منها دون أن تستطيع منعه. وهكذا تعود آخر الآية إلى أول السورة من طريق

خفي: بدأت بـ ﴿يَدِهِ الْمُلْكُ﴾ وانتهت بسؤال يكشف أن ما في أيدينا ليس ملكاً مستقلاً.

والغُورُ هو الماء الذاهب في الأرض بحيث يتعذر الوصول إليه، والمشهد بسيط لكنه مهول:

تستيقظ صباحاً، تفتح موضع الماء، فلا ماء؛ تبحث في الآبار فلا تصل، وتنتظر إلى خزائنك

وأموالك وآلاتك فلا شيء منها يصنع قطرة من العدم. كم تنهار حضارة الإنسان بسرعة أمام

العطش! يستطيع أن يعيش بلا كثير من الكماليات، لكن الماء يضع جسده أمام حقيقته

الأولى: أنت كائن فقير جداً، وقليل من السائل الذي تمر به كل يوم بلا التفات هو شرط

لا استقرار جسدك. وما أقسى أن يكون الإنسان قادراً على إرسال آلاته إلى آفاق بعيدة ثم

يبقى عاجزاً عن الحياة أياماً معدودة إذا فقد الماء.

ثم السؤال الأخير: ﴿فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ﴾؛ والمعين هو الماء الظاهر الجاري الذي تناله

الأيدي والأبصار بسهولة. وتأمل جمال الانتقال من غوراً إلى معين: من شيء مختلفٍ بعيد

إلى ماء ظاهر قريب. والمسافة بين الحالين ليست في يد الإنسان على الحقيقة، بل في فضل

الله. أنت لا تريد فقط أن يوجد الماء في مكان ما من الأرض، بل أن يكون قريباً، ممكن

الوصول، صالحاً للاستفاد؛ وكم من تفاصيل النعمة لا نراها لأننا اختصرناها في اسم واحد.

ليس الماء نعمة واحدة؛ وجوده نعمة، وقربه نعمة، وصلاحيته نعمة، واستمرار جريانه نعمة،

سُورَةُ الْمُلْكِ | حِينَ يَسْقُطُ وَهُمْ الْأَمْتَلَاكِ

وقدرتك على شربه نعمة، وقدرة جسدك على الانتفاع به نعمة. وكل نعمة إذا فُككت إلى عناصرها ظهر كم نحن غارقون في العطاء.

ولم تجب السورة عن السؤال، لأنها لا تحتاج إلى أن تجيب؛ الصمت بعده هو الجواب. فمن يأتيكم بماء معين؟ لا أحد من دون الله. وقد كان يمكن أن تختم السورة بجملة تقريرية: الله يأتيكم به، لكنها اختارت أن تترك السؤال مفتوحاً في أذن الإنسان، كأنه سيظل يمشي معه بعد انتهاء التلاوة. كلها شرب الماء عاد السؤال، وكلما رأى نهراً أو بئراً أو مطراً أو صنبوراً يجري منه الماء عاد السؤال: من أبقاه؟ وهكذا يتحول أبسط فعل يومي إلى ذكر.

ولعل هذه الخاتمة هي المفتاح الأشد جمالاً لفهم السورة كلها؛ فسورة الملك لا تريد أن تخرج منك عالماً بخريطة الكون بقدر ما تريد أن تخرج منك عبداً يرى الملك في كل شيء. قد تنظر إلى السماء فتري ملكه، لكن الامتحان الحقيقي أن ترى ملكه في كوب الماء؛ قد تعترف أن الله يملك الموت والحياة، لكن الأعظم أن تعرف أنه يملك رزق يومك؛ قد تقول إن الله قادر على كل شيء، لكن هل ينعكس ذلك على خوفك من البشر وعلى توكلك وعلى قلقك من المستقبل؟ إن العقيدة حين تبقى في الأشياء الهائلة سهلة من وجه، لأن الهائل بعيد عن تفاصيل حياتك؛ أما حين تدخل العقيدة إلى الماء والرزق والمشي والسر والسمع والبصر فقد صارت حياة.

سُورَةُ الْمُلْكِ | حِينَ يَسْقُطُ وَهُمْ الْأَمْتَلَاكِ

وهكذا تنتهي السورة من غير أن تنتهي في القلب. لقد بدأت من الملك وانتهت إلى الماء، وبينهما أعادت الإنسان إلى حجمه الحقيقي؛ أخرجته من وهم أنه صاحب هذا العالم إلى وعي أنه ضيف ممتحن فيه، ورفعت بصره إلى السماوات حتى عاد البصر حسيراً، وأسمعته شهييق النار حتى لا يؤجل السماع والعقل، وأدخلته إلى سر صدره حتى يعلم أن لا خفاء عن الخالق، ومشت به على الأرض لتخبره أن الطريق مذل لا مملوك، وأرته الطير حتى يعرف أن الإمساك فوق كل سبب، وسألته عن الجند حتى تسقط عبادة القوة، وعن الرزق حتى تسقط عبادة السوق، وعن الصراط حتى يراجع جهة مشيه، وعن السمع والبصر والفؤاد حتى يدرك أن المعرفة أمانة، وعن الحشر حتى لا ينسى نهاية التفرق، ثم تركته أمام كأس الماء ليعرف أنه ما كان يوماً مستقلاً عن ربه في شيء.

وفي آخر هذه الرحلة يكاد القلب يسمع الآية الأولى من جديد، ولكن بمعنى أعمق مما سمعها في البداية: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾. الآن لم يعد «الملك» كلمة عامة؛ صار السماء التي نظرت إليها، والأرض التي تمشي عليها، والطير الذي رأيت، والرزق الذي تأكله، والسر الذي تخفيه، والعمر الذي ينقضي، والماء الذي تشربه. وهنا تتحقق غاية التدبر: أن نتخلص المسافة بين ما نعرفه عن الله وبين الطريقة التي ترى بها العالم، حتى يصبح كل شيء من حولك شاهداً على حقيقة واحدة، ويصبح قلبك أقل خوفاً من الخلق لأنه

سُورَةُ الْمُلْكِ | حِينَ يَسْقُطُ وَهُمْ الْأَمْتَلَاكِ

عرف المالك، وأقل غروراً بالنعم لأنه عرف المعطي، وأقل يأساً عند الفقد لأنه عرف القادر، وأشد حياءً في السر لأنه عرف الخبير، وأكثر عملاً في الأرض لأنه عرف أن الرزق من الله، وأكثر استعداداً للموت لأنه عرف أن الحياة امتحان، وأكثر توكلاً لأنه عرف أن ما يمسك الطير هو الرحمن.

وهناك، عند آخر قطرة من السورة، يفهم الإنسان أن الفقر إلى الله ليس حالة طارئة تصيبه حين تفشل الأسباب، بل هو حقيقته الدائمة التي كانت تسترها عنه الأسباب؛ وأن التوحيد ليس أن تقول فقط إن لله ملك السماوات والأرض، بل أن يعيش قلبك مستيقناً أنه لا يملك نبضه ولا غده ولا كأسه إلا بالله؛ وأن أعظم غنى يمكن أن يبلغه العبد ليس أن يستغني عن ربه، فهذا مستحيل، بل أن يعرف افتقاره إليه حتى يصبح هذا الافتقار نفسه باب طمأنينته. فن كان الله مالكة ورازقه وحافظه ومرجعه، فما أشد فقره إليه، وما أعظم غناه به.